الفصل الثاني

أصول الفكر الفلسفي في بغداد

المبحث الأول: الفلسفة العربية الإسلامية / إشكالية النص وجدلية العنوان

المبحث الثاني: علم الكلام في بغداد

المبحث الثالث: العلاقة بين علم الأصول وعلم الكلام والفلسفة العربية الإسلامية

المبحث الرابع: المنابع الأساسية لعلم التصوف الإسلامي في بغداد السلام / المبدأ والأصول

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الأول

الفلسفة العربية الإسلامية

إشكالية النص وجدلية العنوان

الفلسفة حدها وعين ماهيتها

ما الفلسفة؟ وماذا تعني؟ وما هي حدودها؟ سؤال كبير، كتبت في جوابه دراسات، وتعددت في شرحه كتب، ليس من السهل إحصاؤها أو تقصي تفرعاتها... الفلسفة حسب مفاهيم مدرستنا الفلسفية البغدادية وكما عرفها أبو يوسف اسحق بن يعقوب الكندي: هي أم العلوم، وهي صناعة الصناعات، وحكمة الحكم، ويعرف الفلسفة أيضاً: بأنها علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان[1]، وينقل الكندي عن الحكيم أرسطوطاليس ((إن علم كل شيء ينظر فيه، يقع تحت الفلسفة التي هي كل شيء))... وكان فيثاغورس أول من استعمل مصطلح (فلسفة) وأراد به معنى هذا العلم، وقد عدّت الفلسفة علماً خاصاً عند أفلاطون[2]، وهو يرى: أن الفلسفة يجب أن تكون حارساً للمدينة[3]...

والفلسفة عند الخوارزمي في كتابه (مفاتيح العلوم): هي علم حقائق الأشياء والعمل بما هو أصلح[4]... ويضيف إخوان الصفا في رسائلهم تعاريف أخرى

---

١ الكندي، رسائل الكندي الفلسفية، تحقيق الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، ١٩٦٤، ج١، ص١٧٣، الآلوسي، د. حسام، دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي، بيروت، ١٩٨٠، ص٢٠

٢ روزنتال، الموسوعة الفلسفية، بيروت ١٩٨٠، ص٣٣٦.

٣ عثمان أمين، مجتمعنا بحاجة إلى فلسفة، القاهرة ١٩٦٠، ص٧.

٤ (القاهرة ١٣٤٢هـ) ص٧٩ فما بعد.

منها: إن الفلسفة هي البحث عن ماهية الأشياء[1]، وقال غيرهم هي البحث عن أصول الأشياء[2]، والفلسفة في اصطلاح البعض من أهل التصوف، هي: التشبه بالإله حسب الطاقة البشرية لتحصيل السعادة الأبدية، والفلسفة في قواميس اللغة: التأنق في المسائل العلمية والتفنن فيها، ومنه قول الشاعر أبي نواس في واحدة من قصائده التي يعرض فيها بإبراهيم النظام وجه المعتزلة في زمانه:

فقل لمن يدعي في العلم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء

وسبب ذلك أن أبا نواس كان قد مر بالنظام وهو يناظر في الوعيد ويقول: من مات مرتكباً الكبيرة غير تائب منها لم يعف الله عنه وخلده في النار فخاطبه أبو نواس بقوله ذاك[3].

والفيلسوف هو الباحث عن فروع الفلسفة والعالم بالفلسفة، وتفلسف الرجل تكلف طريقة الفلاسفة من دون أن يحسنها[4]...، وكان ديكارت شيخ فلاسفة الغرب المحدثين.

---

١ رسائل إخوان الصفا، القاهرة ١٣٠٦هـ، ج١، ص١٣.

٢ تفصيلات أخرى لهذه التعاريف عند، مصطفى عبد الرازق، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، القاهرة ١٩٤٢، ص٤٥ فما بعد.

٣ مطلع القصيدة:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراءُ وداوني بالتي كانت هي الداءُ

ويقول أبو حاتم السجستاني: إن أبا نواس صحب النظام صغيراً فأخذ الكلام عنه ثم فارقه زمانا ثم عاوده أيضاً فكان النظام يدعوه إلى مذهب الاعتزال وينهاه عن الكبائر ففارقه وهجاه بقوله:

فقل لمن يدعي بالعلم فلسفة.... ديوان أبي نواس، ص٧٣.

٤ دوزي، إكمال المعاجم العربية، (بغداد ١٩٩٧) ج٨، ص١١٠ مادة فلسفة.

فلاسفة من دون أن يحسنها يقول: إن الفلسفة هي وحدها التي تميزنا عن الأقوام المتوحشة والهمجيين، وإن حضارة الأمة وثقافتها إنما تقاس بمقدار شيوع التفلسف الصحيح فيها، ولذلك فإن أجل نعمة ينعم الله بها على بلد من البلدان هي أن يمنحه فلاسفة حقيقيين[1]، وقد استقطب الجواب عن هذا السؤال مجمل الفلسفة في تيارين متعارضين تعارضاً قطعياً طبعت آثارها وبصماتها على تاريخ الفكر للبشرية عامة والفلاسفة بنحو خاص، كان هذا التعارض قوة من القوى المحركة الرئيسة لمزيد من البحث والدراسة في هذا الميدان ويخطئ من يقول: إن هذا التعارض قد أضر بالحركة الفكرية عبر التاريخ بل العكس كان صحيحاً تماماً[2]...

إن تأثير الفلسفة اليونانية وكثيراً من ثقافات ذلك العصر كان واضحا، على مجمل أفكار فلاسفتنا ومفكرينا، وتلك مسألة صحية، تدل على فهم ناضج وانفتاح حضاري، ولكن السلف الصالح لم يعتمد تلك الثقافات اعتماداً كلياً، بل اخذ منها الجانب الذي يخدم قضيته، ويعضد أفكاره.[3]

البحث في الفلسفة

يتم البحث في أمور الفلسفة من خلال ثلاثة أقسام تتناولها ثلاثة كتب، وهي المنطق: ويعرف بأنه آلة لتحصيل العلوم، ومنهم من جعله آلة لتحصيل الفلسفة

---

١ ديكارت، مبادئ الفلسفة، ترجمة عثمان أمين. القاهرة ١٩٦٥، ص٤٨.

٢ دراستنا: مدرسة بغداد الفلسفية دراسة تحليلية لتأسيساتها الأولى وبنائها المعاصر، ضمن كتاب بيت الحكمة، (مستقبل الفكر المعاصر في الوطن العربي والعالم)، بغداد، ٢٠٠٢م، ص٤٣٧-٤٥٢

٣ دراستنا، لماذا فلسفة التاريخ؟، دراسة مستقبلية، مجلة اتجاه، العدد التاسع عشر، السنة الخامسة / بيروت، تشرين الأول /٢٠٠١

obeikandl.com

خاصة... والمنطق عند ابن سينا ((آلة قانونية تعصم مراعاتها أن يضل الانسان في فكره))[1]....

والكتاب الآخر ((الطبيعيات))، وموضوعه البحث عن الجسم الطبيعي، أي ما له، عنصر ومادة، والطبيعة عندهم المبدأ الأول لحركة ما هي فيه أي الجسم الطبيعي، والعلم المنسوب إليها هو العلم المسمى بالطبيعيات لا العلم بالطبيعة[2] نفسها...

والكتاب الثالث (إلهيات) وموضوعه ما ليس بعنصر أو مادة وهو واجب الوجود سبحانه[3]...

ومن الدارسين من أضاف إلى هذه الأقسام قسماً رابعاً وهو (الرياضيات) وموضوعه البحث عن أشياء موجودة في المادة مثل المقاييس والأشكال والحركات وغير ذلك، وكل من هذه الكتب ينقسم إلى علوم ومفاهيم وموضوعات. يقول حاجي خليفة: (علم الفلسفيات أربعة أنواع: (رياضية ومنطقية وطبيعية وإلهية) فالرياضيات أربعة أقسام يعدها، والمنطقية خمسة أنواع يذكرها والطبيعية سبعة أنواع يشرحها، والإلهية خمسة أنهاج يفصلها... [4]

لقد اهتم الخليفة المنصور والخليفة المأمون على وجه الخصوص اهتماما شديداً بالفلسفة وفضلوها على غيرها من العلوم، الأمر الذي ترتب عليه انتشار

---

١ ابن سينا، أبو علي حسين بن عبد الله، (ت ٤٢٩-١٠٣٨م)، الإشارات والتنبيهات، طهران، ١٣٧٧، ج١، ص٩.

٢ ابن سينا، المصدر السابق، ج١، ص٦-٧.

٣ المصدر السابق، ج١، ص٨.

٤ كشف الظنون في أسامي الكتب والفنون، بيروت ١٩٨٢، ج٢، ص١٢٨٩. الخوارزمي، مفتاح العلوم، ص٧٩-٨١.

الكتب الفلسفية في عاصمة ملكهم بغداد خصوصاً، وشاعت بين شرائح كبيرة من أهل بغداد على الرغم من معارضة شرائح عديدة...

الفلسفة العربية الإسلامية: إشكالية النص

وإذا عرفنا معنى الفلسفة، إذن فما المقصود بمعنى فلسفة عربية إسلامية وكلتاهما صورة واحدة لشجرة وارفة؟، فلسفة عربية أو فلسفة إسلامية، ولكننا هنا نتكلم عن فلسفة عربية إسلامية، ولا نتكلم عن فلسفة عربية من دون ربطها بالإسلام، إن الكلام عن فلسفة إسلامية من دون ربطها بالعربية أو عن فلسفة عربية من دون ربطها بالإسلام، عمل لا يصيب كبد الحقيقة أبداً ويبقى بعيداً عن التعبير عنهما معاً... ولكن هذا لا يعني أن الفلسفة العربية الإسلامية، انغلقت على أهل الديانات السماوية الأخرى أو مسخت المعتقدات والأفكار غير الإسلامية، ودعت أهلها إلى التخلي عن دياناتهم والابتعاد عن معتقداتهم... كلا... الفلسفة العربية الإسلامية لا تهضم حق الفكر الآخر، ولا تتنكر لفكر الرجال من الديانات الأخرى، بل هذه جميعها أصل أصيل من مكونات الفلسفة العربية الإسلامية، وركن متين من أركانها المعروفة، وأساس رصين في وحدتها الحضارية الممتدة عبر الزمن... وفي القرآن الكريم عشرات الآيات التي تنظم العلاقة الاجتماعية والفكرية بين المنضوين تحت خيمة الحضارة العربية الإسلامية، وتوصي برعاية هذه الوحدة تحت تلك الخيمة، والشد من أزرها، والعيش في ظلها سواسية على كلمة (سواء) ((... قُلْ يا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلَّا اللَّه ولا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ))[1].. فلا سيطرة، ولا هيمنة، ولا استعلاء، ولا قهر من أي جانب، المسلمون منهم أو غير المسلمين، ولنا في المجالس الفكرية والثقافية في بلاطات الخلفاء المسلمين،

---

١ سورة آل عمران / الآية ٦٤.

وقصور وزرائهم، وأولي الأمر فيهم، وكذلك في المؤسسة الثقافية الكبرى (بيت الحكمة البغدادي) مثل على ما نقول... ((لا إكْراه في الدّين قد تبيّن الرّشد من الغيّ))[1]... ((ولا تُجادلُوا أهْل الْكتَاب إلاّ بالّتي هي أحْسنُ))[2]...

الفلسفة العربية الإسلامية، وكما يشهد بذلك تاريخها، لا تنغلق حضاريا وفكريا، وتتحاور ضمن المناخ الحضاري الممتد عبر آلاف السنين، نقول هذا لأن اللغة العربية هي الأداة الفكرية التي استعملها العرب من كل الديانات جمعتهم وحدة اللغة والوطن والأصل والعادات والتأريخ والحياة الاقتصادية والثقافية إلى جانب إخوانهم المسلمين جميعاً من غير العرب في سبيل بناء أدب من اغزر الآداب في العالم وهو الذي تعبر الثقافة الإسلامية به عن نفسها، وقولنا هذا يعني بالأساس أن تكون الفلسفة العربية الإسلامية جزءاً متمماً للعقلانية العربية الإسلامية بعامة، تضمها خيمة الحضارة العربية الإسلامية عموما لأن هذا التكون الحضاري التراكمي عبر التاريخ كوّن بنية عضوية متماسكة ذات سمات وخصائص قوية مستمرة الوجود، انصهرت وتجانست، وهي بالأصل خطاب عقلي...، إن هذا الطرح يسهل على الباحثين أن لا يتمسكوا بشريحة من دون أخرى أو بعض الأسماء الكبيرة لمفكري العرب والإسلام، بل يتعداهم إلى كل فلاسفة ومفكري العرب والمسلمين في كل العالم شرقه وغربه، وفي كل الأيام السالفة عبر التاريخ وحتى هذا اليوم...

سيبقى مفكرونا العظماء الفلاسفة المسلمون من كل لغات العالم، عظماء عند العربي المسلم أو عند غيرهم من المسلمين ومن غير المسلمين بأية لغة كتبوا الفلسفة الإسلامية فإن أساسها لغة الوحي التي جاء بها القرآن الكريم وهو بلسان عربي مبين... إن الفلسفة العربية الإسلامية هي ليست من النتاج العربي بالدم

---

١ سورة البقرة / الآية ٢٥٦.

٢ سورة العنكبوت / الآية ٤٦.

وحسب، بل هي من نتاج القرآني ثقافة وإسلاما ونتاج أولئك الذين تكلموا العربية وكتبوا بها، ومن غيرهم ضمن العلاقات الاجتماعية الزمنية والمكانية، وهي علاقة واحدة، تمضي إلى حيث يرفدها القرآن معجزة محمد بالمدد الفكري الملتزم[1]...

إن هذا الفهم لإشكالية النص وتحديد المصطلح، يتجاوز جدلية العنوان ويتخطى كل الأبعاد الدينية والقومية والقطرية ليمضي بها إلى رحاب العالمية والعمق الحضاري والثقافي الإنساني بعامة، وهو ما أكده الكثير من المفكرين، وما فصلت أحداثه كتب التاريخ، ولنا مثل في مجالس النظر والثقافة والفكر في عصر المأمون، فقد كان يحضرها العلماء من أهل كل فن والفلاسفة من كل الاتجاهات فيهم المسلم وفيهم المسيحي وفيهم اليهودي وفيهم الصابئي وفيهم من ديانات أخرى غير سماوية، وفيهم الفارسي والهندي والصيني وغيرهم، كان أبو الهذيل العلاف وإبراهيم النظام ومحمد بن موسى الخوارزمي والنوبختية والبخاشعة وحنين بن إسحاق وقسطا بن لوقا وثابت بن قرة وأبناؤه الحرانيين وغيرهم كثير تجمعهم خيمة الحضارة العربية الإسلامية التي وسعت كل الأفكار وكل الديانات وكل القوميات على كلمة (سواء)، إخوان على مائدة الحضارة العريقة.[2]

---

١ يجد البعض من أساتذتنا إن النسبة (عربية إسلامية) لا ينبغي أن تكون نسبة إلى الإسلام كدين فحسب بل إلى الحضارة الإسلامية، حتى ولو كانت الفلسفة ليست متدينة أو حتى تخالف بعض المعتقدات الدينية، وإن كان أصحابها من المسلمين.. مصطفى عبد الرازق، المصدر السابق، ص٤٥،... والدكتور حسام الآلوسي، إشكالية العقلانية في الفكر العربي، المجمع العلمي، بغداد ١٩٩٨، ص١١.

٢ العبيدي، د. حسن مجيد، إملاءات الدكتور العبيدي، بتاريخ٢١-٣-٢٠٠٢ .

ومن صميم هذا ولدت (مدرسة بغداد الفلسفية) ضمت كل العظماء من أقطار الدنيا وتكلموا بكل لغات العالم ذلك الزمن، ضمن وحدة انسانية انضم إليها العلماء من غير المسلمين اعتصموا بحبل الله المتين وانتهلوا من قران الإسلام، هدفها خدمة البشرية ومدها بما يمنحها السعادة والعيش الآمن.

الفلسفة العربية الإسلامية جدلية العنوان في الفروع والمتون

الفروع:

يوم اطلع المفكر العربي المسلم في بغداد على الفكر الآخر، وعلى الخصوص بعد ترجمة ذلك الفكر،[1] جذبته فلسفة الإغريق إلى صفها، وقد كان قبلها مطمئنا إلى دينه وشريعته، ولأن واجبه يدعوه لنشر مبادئ هذه الشريعة، والحجاج الواعي عن معتقداتها، وجد أن علم الكلام، وهو العلم المتكفل بهذا، كان متمكنا في مهمته بين أهلها، غير واف[2] بتعميم تلك الشريعة إلى حيث رحاب العالمية، بالصيغ التي ترضي الطموح، ولما فيه صلاح الدين والدنيا[3]، على حد سواء، الأمر الذي دفع البعض إلى الانفتاح أكثر فأكثر للاطلاع على علوم العصر واعتبار ذلك من الواجبات الشرعية بعد أن حصل لهم اليقين أن علم الكلام بصيغه النمطية ((لم يحصل منه ما يمحق بالكلية ظلمات الحيرة في اختلاف الخلق))[4]، وإن طرح البعض الذين وقفوا من الانفتاح موقفا عنيدا غير

---

١ من المؤكد أن الترجمة كانت قد عرفتها دمشق قبل بغداد، ابن النديم، الفهرست، ص٤١٩ .

٢ يقول الإمام الغزالي: ((أني ابتدأت بعلم الكلام، فحصته وعقلته...)) فصادفته علما وافيا بمقصوده، غير واف بمقصودي، ((المنقذ من الضلال))، تحقيق د. جميل صليبا، ود. كامل عياد، ط٩، بيروت، ١٩٨٠، ص٩١.

٣ الغزالي، المنقذ من الضلال، ص٩٣.

٤ المصدر السابق، ص٩٣.

مبرر وكانت ردودهم تلك ((معقدة مبددة، ظاهرة التناقض والفساد))،[1] بها حاجة للتدقيق وإعادة النظر...[2]

والفلسفة التي جاء بها فكر الانفتاح نتيجة الترجمة، سواء منها فلسفة الإغريق، أو فلسفات الشرق، على كثرة أصنافها وألوانها، بينها تفاوت عظيم، من أفكارها القريب من الشريعة، ومنها البعيد عنها، ويستحق أصحاب ذلك الفكر الإبعاد، وكذلك من فروع الفلسفة ما ينفع ويفيد كفرع الرياضيات: الذي موضوعه: ((المقدار والعدد... وأصوله: علم الهندسة والحساب والهيئة... والموسيقا وفروعه: علم المناظر، وعلم جر الأثقال، وعلم الأكر المتحركة وعلم الجبر وعلم الحيل وغيره))[3]، وهي أمور برهانية لا سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها ومعرفتها[4]، وابتكار المفيد لتطويرها...

أما علم المنطق فهو من فروع الفلسفة العربية الإسلامية المهمة، فلا يتعلق شيء منه بالدين ((نفياً وإثباتاً))[5]، ولا بالشريعة تعريضاً وتجريحاً، ولكنه ((آلة تعصم مراعاتها أن يضل الإنسان في فكره))[6]، وهو في نفس الوقت ((القانون الذي به يميز صحيح الحد والقياس عن فاسدها، فيميز العلم اليقيني عما ليس يقيناً))...[7]

---

١ الغزالي، مقاصد الفلاسفة، تحقيق سليمان دنيا، القاهرة، ١٩٦١، ص١٣٩.

٢ الغزالي المنقذ من الضلال، ص٩٣.

٣ الغزالي، مقاصد الفلاسفة، ص١٣٩.

٤ الغزالي، المصدر السابق، ص١٣٨.

٥ الغزالي، المنقذ من الضلال، ص١٠٣.

٦ ابن سينا، الإشارات والتنبيهات، ج١، ص٩.

٧ الغزالي، مقاصد الفلاسفة، ص٣٦.

أما فرع الطبيعيات في الفلسفة العربية الإسلامية: فهو ((المبدأ الأول لحركة ماهي فيه، أي الجسم الطبيعي، ولسكونه بالذات، وهو العلم المسمى بالطبيعيات لا العلم بالطبيعة نفسها))[1]، فهو بحث في الأجسام المفردة والمركبة ((وكما ليس من شرط الدين إنكار علم الطب، فليس من شرطه أيضا إنكار هذا العلم))[2] وهو لا ريب فيه علم نافع واجب التعليم على كل قادر عليه فلم يجد المفكر العربي المسلم في فجر بغداد صعوبة ما في تفهم هذه العلوم ونحت مفاهيمها وصياغة ألفاظها، بما ينسجم والبيئة وما يوائم الشرع، بل يمضي في تطويرها ونفض غبار الماضي عن بعض أفكارها وسحبها لتكون جزءا من تراثنا...

وكان أبو اسحق يعقوب الكندي رائداً في هذا الأمر، مؤسساً فذاً، أحصى له ابن النديم في كتابه الفهرست ٢٤١ عنواناً[3] لكتب درست الفنون المختلفة، كان منها ١٤ عنواناً في الحساب وعلم العدد و٢٢ عنواناً في الهندسة والمساحة، و٢٦ عنواناً في علم المناظر والأبعاد والكريات و٩ في الموسيقا[4] و٣٦ عنوانا في الطب بقسميه البشري والحيواني، و٤٢ عنواناً في علم الفلك والهيئة والنجوم و٩ كتب في المنطق، وللكندي في صناعة السيوف ومعدات الحرب ٦ عناوين، ومن طريف ما جاء في إحداهن أرسلها إلى الخليفة المعتصم عنوانها ((في اتخاذ جواهر الحديد للسيوف وغيرها من الأسلحة وسقيانها وأنواع الحديد التي ينطبع بها السيوف وسقيانها وما يطرح منها، حتى لا تثلم ولا تتآكل))

---

١ ابن سينا، الإشارات والتنبيهات، ج١، ص٩.

٢ الغزالي، المنقذ من الضلال، ص١٠٥.

٣ ص٣١٥-٣٢٠.

٤ ألف الكندي تسع رسائل، تمكن الأستاذ زكريا يوسف من تحقيق ست منها وقد تمكن الموسيقار العراقي نصير شمة من صنع العود الذي صممه الكندي، ومن المقرر أن يعزف عليه الحان الكندي نفسه في أعياد شم النسيم، نيسان /٢٠٠٢، على قاعة الأوبرا بالقاهرة.

وهذه المصنفات وتلك العناوين تنم عن وعي متقدم بما يلـزم الأمـة مـن معدات ومستلزمات القوة والبائس يرهبون به عدو الله وعدو الناس، كل بحسـب زمانه ومكانه...

وقد تمكن الكندي بما وهبه الله من قدرة وإمكانيات أن يسحب هذه الفلسفات وما كان ينسب إليها من علوم إلى صف الإسلام، ويوفق بينها وبين الشـرع، وأن ينحت ألفاظها بما أفاض الله تعالى في القرآن الكريم علـى اللغـة العربيـة مـن إمكانية في الاستيعاب والهضم حتى صارت الفلسفة: عربية في ألفاظها، إسـلامية في مضامينها، مؤكداً أن هذه العلوم لا تعمل بنفسها عصية على خالقها، كما أراد البعض من الفلاسفة، بل هي مسخرة من جهة فاطرها وخالقها سبحانه.

وهنا تخطر على البال وصية ابن سينا إلى طلابه بأن يضن الواحد مـنهم بهذه العلوم على من لا قدرة له على فهمها وحصرها على من ((يستبصر بها من تيسر له))[1] فهي علوم عصية على غير أهلها...

أما فروع الفلسفات السياسية،[2] والأخلاقية،[3] وتدبير المنزل[4]، فهي الفـروع العملية في مقابل الفروع النظرية....

فروع الفلسفة العربية الإسلامية هذه: كما فرعها الكندي وابن سينا وإخوان الصفاء وغيرهم هذه الفروع الثلاثة من الفلسفة العربية الإسـلامية، إنمـا هـي

---

١ ابن سينا، الإشارات والتنبيهات، ج٢، ص١-٢، وج٣، ص٣٤٨ .

٢ وهذا القسم من صميم العلوم الشرعية، وأصله (تدبير المدن وترتيب أهلها)، الغزالي، المنقذ من الضلال، ص١٣٥.

٣ وهو ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان ليكون ((خيراً فاضلاً في أخلاقه وصفاته))، الغزالـي، المصدر السابق، ص١٣٦.

٤ ((وبه يعلم وجه المعيشة مع الزوجة والولد والخادم، وما يشتمل عليه المنـزل))، الغزالـي، المصدر السابق، ص١٣٥.

الفلسفات الكفيلة بتنظيم العلاقة بين الناس وحفظ مصالحهم في الدنيا، وهي في جوهرها تراكم حضاري، وجزء من تراث البشرية عبر العصور، كلا أضاف إلى صرح الحضارة الشامخ عبر الحياة لبنة يكمل بعضها بعضا[1]، البشرية عبر آلاف القرون مشتركة بصنع هذه الفلسفات، حفظها حمورابي في شرائعه، وكانت قبساً في فلسفات الشرق، وحرفاً في أبجدية الفينيقيين، وعنوانا في أهرامات المصرين، حتى وصلت أثينا بذرة محسنة، كتبها أفلاطون جمهورية، ثم تنقلت بين الإسكندرية وفلسطين ونصيبين والرها وحران وجنديسابور، ثم أراد الله تعالى أن يجعل منها نوراً سرمدياً في رسالة الإسلام، وأن تكون مكة المكرمة مبدأها ومدينة الرسول مستقراً لها والكوفة مدداً لعنفوانها، ودمشق رافداً من روافدها حتى حطت ركابها في بغداد، متفتقة بين يدي جابر بن حيان علماً وأبي الهذيل العلاف كلاماً وإبراهيم بن سيار النظام فلسفة حتى تلقفها الكندي، فكانت مادة خصبة لرسائل عدة قرأناها في رسالته الكبرى في السياسة[2]، وفي رسالته (في سياسة العامة)[3] وفي رسالته (في الأخلاق...)[4] وفي (رسالته في الرئاسة)[5]، ثم قعد الفارابي القواعد في (مدينته الفاضلة)... ونقرأ في كتاب (تحصيل السعادة) للفارابي مثل هذا فيقول الفارابي ((وهذا العلم (الفلسفة) هو أقدم العلوم وأكملها رئاسة، وسائر العلوم الأخرى الرئيسة هي تحت رئاسة هذا العلم... وهذا العلم

---

١ دراساتنا، الحضارة، المدنية، الثقافة، مجلة الأديب المعاصر، بغداد، العدد الأول / سنة ١٩٩٩

٢ الكندي، رسائل الكندي الفلسفية، تحقيق عبد الهادي أبو ريدة، ج١، ص١٦١، الفهرست ص٣١٩

٣ ابن النديم، الفهرست، ص٣١٧، القفطي، أخبار العلماء... ص٢٤٦، ابن أبي أصيبعة. عيو الأنباء، ج٢، ص١٨٧.

٤ المصدر السابق

٥ الكندي، رسائل الكندي الفلسفية ج١، ص١٦ فما بعد

كما يقال: إنه كان في القديم في الكلدانيين، وهم أهل العراق، ثم صار إلى أهل مصر، ثم انتقل إلى اليونانيين ولم يزل إلى أن انتقل إلى السريانيين، ثم إلى العرب....))[1]

ولم تبق الأمور وشبهات في فرع الإلهيات في الفلسفة العربية الإسلامية وقد تنبه إليها فلاسفتنا العرب المسلمون مبكراً، فعالجوا شبهات فلسفة الإغريق فردوا الباطل فيها وسموه باطلاً، وشخصوا الحق وطوروا أساليب الأخذ به... كان المؤسس لهذه الفلسفة أبو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي وجددها على رأس المائة السادسة للهجرة حجة الإسلام الغزالي فكان الغزالي فيلسوفاً عربياً مسلماً حتى في كتابه (المنقذ من الضلال)[2] أبعد كتبه عن الفلسفة... وجددها على رأس المائة السابعة للهجرة العلامة ابن المطهر الحلي في كتب عديدة كان في رأسها كتابه (الأسرار الخفية قي العلوم العقلية)[3] وهي تمضي مع الزمن حتى وصلت الشيخ محمد عبده، والأفغاني، وحملها محمد إقبال عالياً، حتى وصلت إلى أهلها في هذا العصر وهي ترفل بالعز بأيدي أمينة...

<u>المتون:</u>

ونجد بواكيرها في كتب جابر بن حيان، على ما ينقل ابن النديم في كتابه (الفهرست)، على لسان جابر بن حيان نفسه قوله ((ألفت ثلاثمائة كتاب في الفلسفة... وألفت كتب المنطق على رأي أرسطاطاليس... وكتاب الجاروف الذي نقضه المتكلمون... ثم ألفت بعد ذلك خمسمائة كتاب، نقضاً على الفلاسفة...))[4]،

---

١ الفارابي، كتاب تحصيل السعادة، تحقيق د. جعفر آل ياسين، بيروت ١٩٩٢، ص١٨٨

٢ الشيبي، د. كامل مصطفى، الفكر الشيعي، بغداد ١٩٦٧، ص٢٦٧

٣ تحقيق د. حسام الآلوسي وصالح مهدي الهاشم، منشورات مكتبة المثنى، بيروت ١٩٧٥

٤ ابن النديم، المصدر السابق، ص٤٢٢-٤٢٣

obeikandl.com

ثم ألف جابر بن حيان عشرة كتب في الفلسفة سماها (المصححات) منها كتاب (مصححات فيثاغورس) وكتاب (مصححات سقراط) وكتاب (مصححات فلاطون)، وكتب (مصححات أرسطوطاليس)، وهكذا عشرة كتب مصححات لعشرة فلاسفة يونانيين وغيرهم...[1]

ونجد بواكير هذه المتون الأصلية أيضاً عند أبي الهذيل العلاف، وعند إبراهيم بن سيار النظام، نقلها عنهما الخياط في كتابه (الانتصار)[2]، والشهرستاني في كتابه (الملل والنحل)[3]، ثم جاء الكندي بعد أولئك الأعلام فكتب في هذه الأصول والمتون ((المصنفات الطوال والرسائل القصار))[4]، فكان أول فيلسوف عربي مسلم على الإطلاق يحدد أصول الفلسفة العربية الإسلامية بعيداً عن أفكار اليونانيين، بل على الضد منهم[5]، ويصحح شبهاتهم[6] قال الكندي في أول أصل من أصول الفلسفة العربية الإسلامية ونعني به ((أدلة وجود واجب الوجود وأدلة

---

١ المصدر السابق، ص٤٢٢

٢ ص٩١، ص١٢٤-١٢٥

٣ ج١، ص٦٢-٦٧ .

٤ القاضي أبو القاسم صاعد بن احمد الأندلسي، (ت ٤٦٢هـ-١٦٩م)، طبقات الأمم، مطبعة السعادة في مصر، بلا تاريخ، ص٨٢.

٥ الكندي، رسائل الكندي الفلسفية، ص١٩٤، ((كتاب في مائية الشيء الذي لا نهاية له، وبأي نوع يقال الذي لا نهاية له))، رسالة الكندي إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى، ج١، ص٩٧.

٦ الكندي، المصدر السابق، ج١، ص٢٤٤، رسالة الكندي ((في سجود الجرم الأقصى لباريه))

حدوث العالم))[1] فيقول: إن إبداع العالم ((أيس من ليس))[2] أي وجد من لا شيء، أبدعه إبداعاً فأظهره الله تعالى شيئاً من ليس[3]، أبدعته العلة الأولى، وهي المبدعة الفاعلة المتممة للكل،[4] ولم يكن في الإسلام قبل الكندي من اشتهر عند الناس بعلوم الفلسفة، حتى سموه فيلسوفاً غير يعقوب الكندي[5]....

من كتبه المشهورة كتاب ((التوحيد المعروف بفم الذهب))، يقول صاعد الأندلسي عن هذا الكتاب: أنه ذهب إلى مذهب (أفلاطون) ((من القول بحدوث العالم من غير زمان، ونصر هذا المذهب بحجج غير صحيحة بعضها سوفسطائية وبعضها خطابية))[6] وليس للباحث ما يعلق عليه غير الاستشهاد بقول ابن أبي أصيبعة برده على صاعد فقال: ((هذا الذي قاله صاعد على الكندي فيه تحامل كثير، وليس ذلك مما يحط من مكانة الكندي أو الانتقاص من مكانته))، بل هو هكذا صاعد خاصة وعلماؤنا في المغرب عامة، لا يسخرون أقلامهم للمدح بسرعة، بل لابد من وقفة تظهر السلبيات حسب ما يعتقدون إلى جانب الإيجابيات، وهو ما كانوا عليه منذ صاعد وابن رشد وابن طفيل حتى اليوم، والأمثال كثيرة...

---

١ المصدر السابق، ج٢، ص٧٠ فما بعد، رسالة الكندي في (العلة التي لها بعض المواضيع لا تكاد تمطر) ونقرأ في هذه الرسالة أن للكندي أربعة أدلة على حدوث العالم واثبات واجب الوجود وهي: ١- دليل حدوث العالم (المستند على تناهي جرم العالم وزمانه ومكانه) ٢- دليل الوحدة والكثرة ٣- دليل النظام والتدبير ٤- دليل أن الشيء لا يمكن أن يكون علة ذاته.

٢ الكندي، رسالة في الحدود، تحقيق د. عبد الأمير الأعسم، بيروت ١٩٩٣، ص٦٢

٣ المصدر السابق، هامش المحقق رقم١٢، ص٦٣

٤ المصدر السابق، ص٦٢.

٥ صاعد الأندلس، طبقات الأمم، ص٨٣.

٦ المصدر السابق، ص٨٢.

اختلف الكندي مع أفلاطون في أكثر من عشرين أصلاً فلسفياً[1]، ولهذا السبب كان يحسبه البعض أرسطيا أو في صف الرواقيين عامة، ولكن الكندي اختلف مع أرسطو ربما أكثر من اختلافه مع أفلاطون، وانتقد فلسفة أرسطو وزاد فيها وأنقص[2] وعد الكندي من عشاق سقراط لأنه كتب أكثر من ست رسائل في أمره[3]، وكان الكندي حقاً صديقاً لهذا الفيلسوف الخير صديق الفقراء، ولكن الكندي لم يكن عيالاً على سقراط، وليس هذا تعريضاً بتلك القمم الفلسفية الشامخة، التي غدت إرثاً للإنسانية جميعاً إلى جانب أهلها[4]، ولكن في حقيقة القول: أن الكندي الفيلسوف كان يدجن أفكار فلاسفة الإغريق الكبار وينحت ألفاظهم، ويسخر أساليبهم، لخدمة الفلسفة العربية الإسلامية، وقراءة أولية لعناوين كتبه ورسائله تؤكد ذلك[5].

ومضى الكندي إلى رحمة الله بعد أن قعد للفكر العربي الإسلامي في فجر بغداد القواعد، وأسس للفلسفة العربية صرحاً، وأصل لها الأصول، في ضوء مفاهيم هذه الفلسفة القرآنية، ونحت ألفاظها من صلب لغة القران، ومن هنا جاء اسمها فلسفة لأنها بنت الإغريق وعربية لأنها بنت لغة القرآن، وليس غير،

---

١ نقرأ هذا مفصلاً في رسائل الكندي الفلسفية، منها ج١، ص١٩٤ فما بعد، وج١، ص٢١٤ ورسالته (إيضاح تناهي جرم العالم)، ج١، ص٢٧٢، رسالته (القول في النفس...).

٢ الكندي، رسائل الكندي الفلسفية، ج١، ص٣٥٩ فما بعد وج١، ص٣٦٩ فما بعد.

٣ ذكر هذه الرسائل: ابن النديم، الفهرست، ص٣١٧، والقفطي، أخبار... ص٢٤٦. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء... ج٢، ص١٨٧، ولم تطبع تلك الرسائل، وليس هناك ما يشير إلى أي من مخطوطاتها... الأب رتشارد يوسف مكارثي، التصانيف المنسوبة إلى فيلسوف العرب، بغداد، مطبعة العاني، ١٩٦٢، ص٣٢.

٤ دراستنا، الخطاب النقدي العربي وإشكالية الديمقراطية، ضمن بحوث المؤتمر الفلسفي العربي الثاني، الجامعة الأردنية، آذار، ٢٠٠٠.

٥ مكارثي، المصدر السابق، ص٦٢ وص٦٧١ وص٦٧ وص٦٩.

وإسلامية لأنها معمدة بعقائد الإسلام، ومعطرة بعطر حضارة الشرق، الممتدة عبر الزمن خيمة كبيرة، وتضم كل الذين كتبوا الفلسفة في هذه اللغة، ومن تكلم بالفلسفة بهذه اللغة، ومن ارتبط بالفلسفة بروابط الزمانية والمكانية[1]، لم تهضم أحداً ولم تلغ دور لغة أخرى، ولا تطمس نهج دين سماوي آخر، خيمة تتحاور فيها الأفكار...[2].

وثم انفصلت العلوم عن الفلسفة، منها الرياضيات التي كانت زمن الكندي فرعاً طويلاً عريضاً وهذا لا يعني استقلال العلوم عن الفلسفة، أو أنها استغنت وإلى الأبد عن أمها، فما زالت العلوم ترضع من ذلك الثدي الدافئ، وأن اختلفت جهة الحاجة والعون عما كان قبل استقلال العلوم، ((تماما كالبنت تستقل عن أمها عند زواجها، ولكنها تحتاج إليها في مشكلات واحتياجات جديدة، بل أن علوما لم تكن ترتبط بالفلسفة أصبحت تلتمس الحكمة والحنكة من هذه الأم العجوز))[3]، ذات الخبرات المتراكمة والنصائح الخالصة...

ولئن مضت بعض فروع الفلسفة العربية الإسلامية بقيت أصولها تتجذر مع الفارابي وابن سينا وعشرات من المفكرين بعد عصر الكندي، يحملون تلك الأصول ويضعون لها الدعامات التي تبقيها متألقة، قريبة من الشريعة، ليس بعيدة عن عصرها...

---

١ دراستنا، لماذا فلسفة التأريخ، ضمن بحوث المؤتمر الفلسفي العربي الثاني، بغداد، بيت الحكمة، مارس، ٢٠٠١.

٢ دراستنا، الحضارة، المدينة الثقافية، مجلة الأديب المعاصر، العدد الأول، ١٩٩٩.

٣ أحمد محمود صبحي، في فلسفة التاريخ، ج١، ط٢. مؤسسة الثقافة الجامعية القاهرة ١٩٧٥، ص٧.

ثم جاء حجة الإسلام الغزالي فيلسوفاً، جدد الفلسفة العربية الإسلامية على رأس المائة السادسة للهجرة، ويخطئ من يظن الغزالي عدواً للفلسفة العربية الإسلامية، بل من هنا جاء مقتل هؤلاء ووقعوا في فخ الغزالي...[1]

الفيلسوف الغزالي قسم الفلسفة إلى ثلاثة محاور: محور قريب من فلسفتنا جداً، ومحور بعيد عنها جداً، ومحور ثالث به حاجة إلى تقويم في مفاهيمه، ونحت في ألفاظه...

وقام الغزالي بهذه المهمة خير قيام، حتى في كتابه ((المنقذ من الضلال)) أبعد كتبه عن الفلسفة... الغزالي وضع قواعد الفلسفة العربية الإسلامية في كتابه ((تهافت الفلاسفة)) بعد أن مهد لهذا الكتاب بكتابه ((مقاصد الفلاسفة))، وحدد مفاهيمها بما يميزها عن غيرها من الفلسفات ويجعلها بحق: عربية لها من لغة القران عنواناً، وإسلامية لأنها جاءت من صميم شريعة الإسلام أولا، ولأنها صارت خيمة كبيرة ضمت حضارات من حولها ثانياً...

الغزالي وجد أرسطوطاليس أقرب الفلاسفة الإغريق إلى مذاهب الإسلام على وفق ما نقله عنه ابن سينا والفارابي[2]... كما أحصى الغزالي أخطاء أرسطوطاليس فوجدها في عشرين أصلاً، فصلها ورد عليها في كتابه ((تهافت الفلاسفة))[3]، ولكن الغزالي وجد أعظمها ثلاثة أعاد دراستها وفصلها ثانية في

---

١ الغزالي فيلسوف في كل ما كتب: في فقهه وأصول وفلسفته في كلامه في تصوفه يصدر عن العقل، والطرح العقلي فلسفة، فالغزالي فيلسوف يقول الغزالي في كتابه (معارج القدس)، ص٥٤ فما بعد، في بيان تظاهر العقل والشرع وافتقار إحداهما الى الاخر: اعلم إن العقل لن يهتدي إلا بالشرع، والشرع لم يتبين إلا بالعقل فالعقل كالبصر والشرع كالشعاع ...)، العقل كالسراج والشرع كالزيت الذي يمده...

٢ الغزالي، المنقذ من الضلال، ص١٠٦.

٣ تحقيق سليمان دنيا، القاهرة، ١٩٦٤، ص١٠ فما بعد.

كتابه ((المنقذ من الضلال))،[1] وهذه الأصول الخطأ خالفوا فيها كافة الإسلاميين... وكان ذلك في قولهم:

١- إن الأجسام لا تحشر وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح المجردة، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية، ولقد صدقوا في إثبات الروحانية: فأنها ثابتة أيضاً، ولكن كذبوا في إنكار الجسمانية...

٢- ومن ذلك قولهم: ((إن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات)).

٣- ومن ذلك قولهم بقدم العالم وأزليته، فلم يذهب أحد من المسلمين إلى شيء من هذه المسائل.

وفي كتاب الغزالي التهافت فصل الأصول الأخرى التي غلط بها الفلاسفة الإغريق مثل نفيهم الصفات وموقفهم من البعث والنشور وإن الله تعالى مصدر الوحي، وإن الأنبياء رسل بعث بهم الله، ونحوها من أصول...

وكان الكندي مؤسس الفلسفة العربية الإسلامية قد فطن لهذا مبكراً فعالجه ملياً ونزه الفلسفة العربية الإسلامية عن هذه الشوائب، ليس في هذه الرسالة تفصيلاتها...[2]

وكان الفيلسوف المغربي ابن رشد قد رد على الغزالي، وعلى ما جاء بكتبه تلك رداً عنيفاً وحاداً بكتاب سماه ((تهافت التهافت)) ثم أردفه بكتابين

---

١ تحقيق د. جميل صليبا ود. كامل عياد، ط٩، بيروت، ١٩٨٠، ص١٠٠-١١٦.

٢ أفرد الباحث: المبحث الثاني من الفصل الرابع من هذه الرسالة لتفصيل القول في هذه المسألة...

آخرين الأول: ((فصل المقال في تقرير ما بين الشريعة والحكمة من اتصال[1]...))، والآخر ((الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة[2]))

والباحث يرى أن الفيلسوف المغربي الكبير وإن كان قمة في عرضه ونقده وجداله، ولكن هذا جاء في غير الغرض الذي ألف من أجله، لأن ابن رشد ظن أن الغزالي عدو للفلسفة وهو غير ذلك قطعاً...

الفلسفة العربية الإسلامية تواصل أم انقطاع؟

هذه الدراسات قد شغلت المستشرقين قبل غيرهم حتى استوى عودها لديهم خلال هذا القرن، إلا أن من المؤسف أن نجد كثيراً منهم قد اصدر أحكاماً جائرة لا أساس لها من الواقع في دنيا الفلسفة العربية الإسلامية، حتى أشاع عنها بعضهم إنها ضحلة مفككة لا وحدة فيها ولا عمق[3]، وعلى هذا فليس هناك فلسفة

---

١ طبع غير مرة: آخرها نشر مركز دراسات الوحدة العربية، مع مدخل ومقدمة تحليلية ودراسة عن تاريخ العلاقة بين الدين والفلسفة في الإسلام، بقلم د. محمد عابد الجابري، بيروت، ١٩٩٨.

٢ طبع غير مرة: آخرها نشر مركز دراسات الوحدة العربية، مع مدخل ومقدمة تحليلية ودراسة في تاريخ علم الكلام في الإسلام، بقلم د. محمد عابد الجابري، بيروت، ١٩٩٨.

٣ ذكر الأستاذ مصطفى عبد الرازق في كتابه (تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية) استعراضاً موجزاً لبعض آراء المستشرقين في الفلسفة العربية الإسلامية ممن حكم لها او عليها فمن ألف في الفلسفة العربية الإسلامية في القرن التاسع عشر، أو من المعنيين بهذه الفلسفة في القرن الحالي حتى عام ١٩٤٤م، ص٤-٣٠، كذلك مقدمة وخاتمة كتاب الفلسفة الإسلامية (القاهرة ١٩٤٧) للدكتور إبراهيم مدكور. د. حسام الآلوسي، حوار بين الفلاسفة المتكلمين (بغداد ١٩٦٧)

إسلامية بالمعنى الحقيقي لهذه العبارة... وزعموا أنها ظلت على الدوام فلسفة انتخابية عمادها الاقتباس مما ترجم من كتب الإغريق[1].

في حين انصفها إخوان لهم ممن سبر أغوارها وقام بدراستها بروح علمية متجردة، فتلمسوا آنذاك ما فيها من أصالة وخصب[2] وقرروا: إنها إنما وجدت لتشهد على أن الإسلام لا يعبر عن ذاته بشكل تام وحاسم بالفقه وحده كما كان يشاع خطأ[3]، والحق إنه ليس في تاريخ الفكر الإنساني فلسفة ذات أطر مستقلة غير متأثرة بما قبلها في الاقل، فالفلسفة اليونانية ذاتها -وهي أول فلسفة واضحة المعالم في التاريخ- لابد إنها خضعت لنظام التطور الحتمي لسنة الحياة بصفتها كائناً حياً فكانت نتيجة لإرهاصات ومقدمات فكر إنساني سابق[4]...

وكذا الفلسفة العربية الإسلامية التي نضجت في جنبات (مدرسة بغداد الفلسفية) فهي جزء فاعل في الفلسفة العربية الإسلامية نمت وترعرعت في ظل الإسلام ومن خلال مبادئه، فلها طابعها وميزاتها في عالم الفكر حيث وافق بعضها بعضاً وتأثر كل منهما بالآخر، شأنها في ذلك شأن كل أمر حضاري،

---

١ دي بور، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمه عبد الهادي أبو ريدة (القاهرة ١٩٥٧م)، ص٥٠-٥١.

٢ مدكور، د. إبراهيم، في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق، (القاهرة ١٩٤٧)، ص٩-٣٠.

٣ هنري كوربان، تاريخ الفلسفة الإسلامية، ترجمة نصير مروة وحسن قبيس، بيروت ١٩٦٦، ص٣٠.

٤ في إشارة لابن النديم في (فهرسته)، أنه كان يرى إن أصل الكتب الفلسفية ونحوها من علوم عقلية من بابل، ثم صارت إلى مصر، بعد أن ملكها (هرمس البابلي) الذي كان من أكمل القوم عقلا، وأصوبهم علما، وألطفهم..، ص٣٠٠، ديورانت، قصة الحضارة، ج٦، ص١٤ فما بعدها، وانظر بهذا الخصوص رأيه في اقتباس الفلسفة اليونانية من الحضارات التي سبقتها والتي اكتشفت مؤخراً في بحر إيجا التي كانت متأثرة بدورها بالحضارات البابلية والمصرية وغيرها من حضارات الشرق القديم...

والفلسفة العربية الإسلامية والفلسفة في مدرسة بغداد الفلسفية كما أسلفنا هي نتاج العقل المعتقد المتأمل، فبينها وبين الإسلام اكثر من وشيجة وصلة، وليس هنـاك مجال للشك في أن الدين الإسلامي الحنيف ومعجزته القرآن الكريم من الـديانات السماوية التي احتضنت العقل وبالغت في تقدير العلم والبحث والمعرفـة بشـتى مجالاتها [1]

ولكل ما مر نجد من الإنصاف أن نحدد معالم فلاسفتنا ومفكرينا بمـا هـم أهله، فهم في الحقيقة لا يبتعدون عن كونهم فلاسفة عـرب مسـلمين بقـدر مـا يبتعدون عن كونهم محسوبين على هذا الفيلسوف اليوناني أو ذاك، لأن فلاسـفتنا قد تقاسموا هذا الموقع الوسط الموفق المتعدد الأصول والأبعـاد لإظهـار مـدى الوحدة والتلاحم في الفكر العربي الإسلامي[2].

---

١ في القرآن الكريم عشرات الموارد التي أسهبت في تثمين العلم والمعرفة منها علـى سـبيل المثال لا الحصر: آل عمران: ٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٦٦. والنسـاء: ١٦٢، ١٨٣. والأنعـام: ٥٠، ١١٩، ١٤٤ وغيرها. وفي القرآن الكريم أيضاً تأكيد على أهميـة القلـم والقرطـاس والسطور وما أشبهها من مستلزمات التدوين، وإن سبحانه أقسم بالقلم ومايسـطرون، وقـد بلغت مواردها أكثر من ٤٦٠ موردا، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، وضع محمد فؤاد عبد الباقي ص٥١٩-٥٩٥، ص٥٣٩-٥٤٠، وغيرها كما إن لفظ العقل وغيرها ويعقلون ونحوها وردت في أكثر من خمسين موردا، فهارس القرآن الكريم وضع محمود راميـا، ص٧٠٨، ٧٩٦، ٩٠ وغيرها، مقالنا (القلم ومستلزمات التدوين في القرآن الكريم)، مجلة البلاغ، بغداد /أيار/١٩٧٠، العدد الثاني، السنة الثانية، ص٤٢.

٢ مثال ذلك المدرسة الفيضية الإسلامية كما يمثلها الفارابي وابن سينا في مسألة قـدم العـالم بالزمان وحدوثه بالذات وما وراء ذلك من قضايا فلسفية معقدة مثل: فكـرة العلـة التامـة والزمان،... والمتعمق في هذه المشاكل يرى أن الفارابي وابن سـينا كانـا واقعـين تحـت تأثيرات يونانية (أرسطية أفلوطينية) وإسلامية (القرآن وعلم الكلام)، ولا عيب في ذلك فهـو انفتاح حضاري واجب الممارسة في كل زمان ومكان على أن لا يطمس الهويـة، والمثـال على ذلك قول فلاسفتنا أن الهيولى قديمة بالزمان فهو يوافق قول أرسطو في (أزليـة مـادة العالم) ولكنه ينطلق من مقدمات أخرى واعتبارات تجعل هذه الهيولى بالرغم مـن أزليتهـا بالزمان فهي مبدعة من لاشيء إبداعا (محدثه بالذات) وهو أمر نابع عن قـراءات قرانيـة ونهج إسلامي من جهة، ويخالف المذهب الأرسطي من جهة أخـرى، فصـل هـذا الأمـر مذكور، (في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيقه)، ص٢٨ فما بعد والدكتور الألوسي، المرجـع السابق، ص٣٨-٥٩.

أما لماذا حدد البعض من الباحثين إن هذه فلسفة عربية إسلامية قبل ابن رشد وتلك بعده. أم لماذا لم تعط تسميات محددة زمنيا مثل ما جرى للادب العربي وتقسيمه بحسب العصور التي مر بها، فالحقيقة إن كل تراث انساني يخضع لمؤثرات تطبعه بطابعها، وبحقب يتميز بها، فالفلسفة في الغرب تنقسم اعتيادياً إلى ثلاث حقب معروفة والتاريخ الإسلامي ذاته ينقسم إلى عصور معروفة أيضاً، ولكن لا يمكن أن نقسم تاريخ الفلسفة بناء على ذلك التقسيم... ومهما يكن فالتقسيم اجتهادي واعتباري ويتوقف على اعتبارات هذا الباحث أو ذاك، ولذلك فإن بعض الباحثين في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية يرى أن تاريخ هذه الفلسفة لم يمر إلا بمرحلة واحدة فحسب، وهي تلك التي بدأت بظهور الإسلام وانتهت في المشرق مع الغزالي (ت ٥٠٥هـ-١١١١م) وفي المغرب مع ابن رشد (ت ٥٩٥هـ-١١٩٨م). وعيب هذا الرأي أنه يقف بالفلسفة عند هذين القمتين، علماً بأنها استمرت بعدهما. في حين يرى آخرون أنه بانتهاء بعض الأمور في الإسلام المغربي مع ابن رشد بدأت أمور أخرى مع ابن عربي (٦٣٨هـ-١٢٤١م) وابن خلدون (ت ٨٠٨هـ-١٤٠٥م) وغيرهما وبقيت حتى أيامنا هذه.

كما إن القول بأن الغزالي قضى على الفلسفة في المشرق قضاءً مبرماً لم تقم لها بعده قائمة، زعمٌ خاطئ لا يدل على علم بالتاريخ ولا على فهم لحقائق الأمور[1]، لأن أبا البركات البغدادي (مات بعد ٥٦٠هـ-١١٦٤م) نبغ بعد ذلك[2]، وابن المطهر الحلي (٧٢٦هـ-١٣٢٦م) جدد (مدرسة بغداد الفلسفية) وعممها واتخذها قسماً من أقسام الدروس في المدرسة النظامية، بل إن المفكرين في هذه

---

١ دي بور، تاريخ الفلسفة الإسلامية، ص٣١٩.

٢ هو هبة الله علي بن ملكا، قيل أنه بلغ من العمر تسعين عاما، وكتابه (المعتبر في الحكمة) مطبوع في ثلاثة مجلدات في حيدر آباد (١٣٥٧- ١٣٥٨).

الفترة أصبحوا أكثر عمقاً واطلاعاً على المدارس المختلفة، كما استوت الفلسفة الإشراقية وظهرت أمهات الكتب الفلسفية الجامعة...[1]

مجمل القول:

الفلسفة العربية الإسلامية، ومنذ مؤسسها الكندي، ما كانت مجرد فكر بلا زمان ولا مكان، هي مستقرة في مجتمعها العربي الإسلامي أي كانت حدوده، مستظلة تحت خيمة الحضارة العربية الإسلامية الممتدة عبر آلاف السنين، وهي بلا شك هيكل فكري نشأ في عصر الرسالة، قام به جيل مبروك، خدم مجتمعاً، وعبر عن حضارة.

هذا الموضوع هو الذي دعا الباحث في حقيقة الأمر إلى التفكير في بيان إشكالية الفلسفة العربية الإسلامية، وعلاقته الجدلية مع عنوانها، ومضامين نصها والكلام في عين ماهيتها، فقد وجدناه حاضراً بين يدي أهله في كل عصر وفوق كل مكان حاول ويحاول أن يطلق العنان للعقل العربي المسلم، لتدقيق أبنيته النفسية والاجتماعية والاقتصادية...

موقف الفلسفة العربية الإسلامية الحضاري اليوم، متواصل غير مقطوع، ينطلق من محاور ثلاثة واجبة التدقيق والتقصي وإلا كانت الفلسفة العربية الإسلامية، غير متحضرة، بل وقد تكون بغير موضوع وبلا هوية:

المحور الأول:

الفلسفة العربية الإسلامية هي من تراث السلف الصالح ذكية، تعبر عن مجتمعها التراثي، الذي يعي تاريخه، وأنه سوف لن يكون معافى إن لم يجعل قنواته مفتوحة على ذلك التراث العتيد، فما زال السلف الصالح يمثلون بالنسبة لنا نحن أبناؤهم، المعين الذي لا ينضب، إذا ما انحسر الوعي النظري في فكرنا، أو عجز من تحليل الظواهر في حياتنا...

---

١ نقرأ على سبيل المثال لا الحصر: كتاب (المعتبر في الحكمة) لأبن ملكة وكتاب (الأسرار الخفية في العلوم العقلية) للشيخ الحسن ابن المطهر الحلي

المحور الثاني:

بناء العلائق بين الفلسفة العربية الإسلامية والتراث الغربي الذي بدأ يكون أحد الروافد الأساسية لوعينا ومجمل مصادر المعرفة التي نملك، دخلت ثقافته من أوسع الأبواب، ولم تحدث حركة جادة لكيفية التعامل مع هذا التراث الجارف، والثقافة المعولمة، ولم تقم حركة نقدية لهذا الغزو إلا في أقل الحدود، وبمنهج خطابي به حاجة لأدوات المنهج ومنطق البرهان، كي يصنع مشروعاً نهضوياً. يكافح العدواني بكل ما يدخر من عمق فكري وجذر حضاري، ويتضامن مع الحضارة الأوربية في أمورها الإنسانية.

المحور الثالث:

للفلسفة العربية الإسلامية موقف من الواقع الذي يعيش الناس... الأمة في شتات، وتضاد في المواقف، وقطرية في السياسات، وللفلسفة العربية الإسلامية موقف من هذا ورؤيا، تعين الحاكم والمحكوم على تلمس المسار ومواكبة التحولات، وتصد عنهم عاديات الزمن الرديء، وتحول دون أن يرسم أعداؤنا خرائط مستقبلنا من وراء ظهرنا.

openkandl.com

المبحث الثاني

علم الكلام في بغداد

خطاب التأسيس الفكري

إن عمق فكرنا الفلسفي وإبداعه، إنما يمكن رصده وتتبعه في إدراك هذه الوشائج وهذا التفاعل بين المدارس الإسلامية المختلفة الكلامية منها والفلسفية، وعلى الخصوص بعد أن نضجت المباحث العقلية على حدود المائة الأولى لنشاط علماء بغداد وقادة الرأي فيها، وما أفرزه مفكرو (بيت الحكمة) من فلاسفة ومتكلمين ومناطقة ومترجمين وما أنجزوه من كتب منذ البواكير الأولى مزجت فيها الفلسفة بعلم الكلام مزجاً[1]. ولأن علم الكلام كان ستاراً لكثير من فلاسفتنا وعلى الخصوص بعد شيوع تهمة الحاد الفلاسفة ولاعتقاد بعض المعنيين ناهيك عن عامة الناس إن الفلاسفة العرب المسلمين يضمرون قدم العالم وإنهم ملحدون فحاولوا أن يحصروا دائرة التفلسف في علم الأصول وعلم الكلام ويجنبوهم الفلسفة ما أمكن، والحقيقة التي لا مراء فيها أن بين الفلاسفة في بغداد وبين

---

١ عقد ابن الفقيه الهمداني مقارنة بين علماء بغداد علماء أمصار غيرها فقال (والا من ابن لكم كابن الطيب الحكمي أحمد السرخسي تلميذ الكندي خلفته المشهور بمؤلفاته الفلسفية) وثابت بن قرة الروحاني، الفيلسوف الرياض الطبيب المترجم، والناشئ أبو العباس عبد الله بن محمد الناشئ ألا نباري المتكلم العروضي المنطقي، وإبراهيم بن محمد بن صالح الاقليدي، والبرذعي العدلي أبا الحسن احمد بن عمر بن عبد الرحمن البرذعي من شيوخ المعتزلة في بغداد، إلا أن يظنوا إن لهم كالمبرد المشهور أو ثعلب المذكور، ومن لم يزل بها ولا يزال من الفاضلين على الدهور وعلى السنين والشهور...) وهؤلاء الأعلام كانوا قد شغلوا الساحة الثقافية في بغداد في ذلك العصر، (بغداد مدينة السلام)، ص٦٩، وهوامش المحقق في ص١٥٠- ١٥١.

الإلحاد فاصلا عريضا يوضحه إيمان هؤلاء بالله وباليوم الاخر وما يتفرع عن ذلك...[1]

لقد كان الأمر في بداية الدولة العباسية مختلفا لحد ما لأن الحكمة بالأصل خطاب عقلاني يهدف إلى خدمة الدين والعلم والتقدم ودفع عجلة الحضارة إلى الأمام[2] ومن أجل أن تزدهر الدولة الفتية وتقف بازاء خصومها إذ كان الصراع الفكري محتدماً معهم ((سواء من لاهوتي بعض التجمعات هنا أو هناك، أم الكيانات الأخرى مثل الثنوية والمجوسية))، ولوجود مؤسسات تنشر فكرها متمركزة في عدة مراكز ثقافية في جنديسابور وإنطاكية ونصيبين وحران والإسكندرية[3] ولذا وجد المنصور في العلوم العقلية وسيلة وغاية، وعلى الخصوص بعد أن فشل مناوئو الدولة في جبهات القتال والسياسة حتى قيل

---

١ رد الإمام أبو منصور عبد القاهر البغدادي (١٠٣٧/٤٢٩) في كتابه (الفرق بين الفرق) على الفلاسفة الذين قالوا بانقسام كل جزء إلى أجزاء بلا نهاية وبهذا كفروا النظام، وكفروا أبا الهذيل العلاف بقوله بانقطاع نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار وأنهم سيصيرون إلى سكون دائم، وكفروا أيضا الجبائي وابنه أبا هاشم وهما من شيوخ المعتزلة في قولهما أن الله لا يقدر على فناء بعض الأجسام وكفروا من قال من المعتزلة البصرية بحدوث إرادة الله سبحانه، وغير هذا كثيرا نجده أيضاً مفصلاً في كتاب عبد القاهر البغدادي، أصول الدين، أصدرته دار صادر في بيروت عن نسخة مدرسة الإلهيات بدار الفنون التركية باستنبول (١٩٢٨/١٣٤٦) وعلى الخصوص الأصل الثاني، ص٣٣-٥٥

ونجد نص البيان ملحقا ضمن كتاب ابن رشد (الكشف عن مناهج الأدلة)، نشر مركز دراسات الوحدة العربية، بأشراف الدكتور محمد عابد الجابري، ط١ /١٩٩٨/ ص٥٠- ٥٨.

٢ تفصيلاً لهذه الطروحات، الجابري، محمد عابد، نحن والتراث، الدار البيضاء، ١٩٩٧، ص٤٩، فما بعد.

٣ د. حسام الآلوسي، إشكالية العقلانية، ص٦.

للمنصور مرة ((لقد هجمت بالعقوبة حتى كأنك لم تسمع بالعفو، قال: لأن بني مروان لم تَبلَ رممهم، وآل أبي طالب لم تغمد سيوفهم))[1].

اختلاف الآراء في علم الكلام

اختلف علماء السلف الصالح في جدوى علم الكلام، واجب هو أم بدعة (فمن قائل أنه بدعة وحرام... ومن قائل إنه واجب وفرض أما على الكفاية أو على الأعيان...))[2] قال الإمام الغزالي: وإلى التحريم ذهب الإمام مالك (ت ١٧٩-٧٩٥م) والإمام الشافعي (٢٠٤ -٨١٩م) والإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٣٤-٨٥٥م)، والصوفي الجليل سفيان الثوري (ت ١٦٠-٧٧٦م) ((وجميع أهل الحديث من السلف))[3] وينقل عن حفص الفرد وكان من متكلمي المعتزلة الكبار أن الإمام الشافعي قال. ((لأن يلقي الله عز وجل العبد بكل ذنب ما خلا الشرك خير له من أن يلقاه بشيء من علم الكلام))[4]... وينقل الإمام الغزالي عن الزعفراني عن الإمام الشافعي أنه قال: ((حكمي في أصحاب الكلام أن يضربوا بالجريد ويطاف بهم في القبائل والعشائر ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ في الكلام))[5]

---

١ السيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٦٧... نقرأ في كتب التاريخ الرئيسة في سردها لسيرة الخليفة أبي جعفر المنصور أنه (قتل خلقاً كثيراً حتى استقام ملكه) وأنه (آذى خلقاً من العلماء)، نقرأ تفصيل ذلك في الطبري، اليعقوبي، والمسعودي، والسيوطي، تاريخ الخلفاء، ص٢٥٩-٢٧١.

٢ الغزالي أبو حامد محمد بن محمد أحمد (ت ٥٠٥هـ ١١١١م)، إحياء علوم الدين، تحقيق هيئة بدار الوعي العربي، ط١ بيروت ٢٠٠٠، ج١، ص١٣١

٣ المصدر السابق، ج١، ص١٣١.

٤ المصدر السابق، ج١، ص١٣١.

٥ المصدر السابق، ج١، ص١٣٢.

الإمام أحمد بن حنبل هجر صديقه المقرب الصوفي الجليل الحارث بن أسد المحاسبي مع زهده وورعه، لأنه رد على المبتدعة على طريقة المتكلمين، ((لأن علماء الكلام زنادقة)) على رأي الإمام ابن حنبل، وقال أبو يوسف الأنصاري قاضي القضاة في بغداد ((من طلب العلم بالكلام تزندق))[1]...

علماء الكلام في بغداد خاصة لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام هذا التكفير وهم منه براء بل ردوا على أولئك الأعلام بهدوء وعلمية فقالوا: إن المحذور من علم الكلام، إن كان هو الألفاظ الجديدة والاصطلاحات الغريبة التي نحتت من الفلسفة وجاءت بها الترجمة وكتب الفكر الآخر، فهو أمر وأن لم يعهده الصحابة (رضي الله عنهم)، ولكن لكل عصر علومه ومفاهيمه وتطور أساليبه، فلم نجد مثلاً على عهد الصحابة ألفاظ ((النقض والكسر والتركيب والتعدية وفساد الوضع ونحو ذلك من ألفاظ تورد على القياس)) من أجل تقريب مفاهيم علوم الحديث والتفسير والفقه، فهي ألفاظ مستحدثة للدلالة بها على مقصود صحيح مثلها مثل آنية جديدة على هيئة جديدة لاستعمالها في مباح[2]...

وقال علماء الكلام: ((وإن كان المحذور هو المعني، فنحن لا نعني به إلا معرفة الدليل على حدوث العالم ووحدانية الخالق وصفاته كما جاء في الشرع. فمن أين تحرم معرفة الله تعالى بالدليل؟))[3] المحرم في علم الكلام أن أريد به التشعب والتشظي والعداوة والبغضاء، وهو ما لا يرتضيه عالم...

مرجع الأمة وسندها ودستورها القرآن الكريم، فيه من أوله إلى آخره محاجة مع الكفار، وعماد علماء الكلام كانت آياته وصوره وبراهينه وحججه مآله

---

١ المصدر السابق، ج١، ص١٣١.

٢ الغزالي، إحياء علوم الدين، ج١، ص١٣٢-١٣٣

٣ المصدر السابق، ج١، ص١٣٢

ومورده... قال الله في محكم كتابه ((وجادلهم بالتي هي أحسن))[1]، ((لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا))[2]، ((قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين))[3]...

لعل قلة استعمال السلف الصالح لأساليب الجدل الموسعة التي استعملت في القرون اللاحقة، مسألة طبيعية استوجبتها طبيعة الأشياء وتطور الحركة الفكرية على الساحة العربية الإسلامية، فلم يكن السلف الصالح بحاجة ماسة إليها، كما أن الحجج القاطعة التي جاء بها القرآن لم تترك مجالاً للجدل والرد والمناقشة على نطاق واسع، على عكس ما استوجبه الأمر في صدر الدولة العباسية، بعد الانفتاح على أفكار جديدة وسفارات متعددة وترجمات لكتب الفكر الآخر، الأمر الذي طرحت معه الشعوب الأخرى ثقافتها وحضارتها وفكرها...[4]

لقد لبست بغداد درع الحكمة وهي تخطو أولى خطواتها... فبدت فيها ومنذ عصر مؤسسها أبي جعفر المنصور، كما سبق ذكره، معالم فلسفية مبكرة، سرعان ما نمت وتطورت مع الزمن، للأسباب التي شرحنا، اتسمت بسمات بغداد

---

١ سورة النحل / آية ١٢٥

٢ سورة الأنبياء آية ٢٣.

٣ سورة البقرة آية ١١١

٤ ناقش الإمام عبد القاهر البغدادي في كتابه (أصول الدين، النظام في مسألة بيان أن الأعراض مختلفة الأجناس: زعم النظام أن الحيوان كلها جنس واحد لاتفاقها في توليد الإدراك، ثم زعم أن الجنس الواحد لا يقع منه عملان مختلفان كما لا يقع من النار تسخين وتبريد، ولابد من الثلج تبريد وتسخين...ومن ضمن هذه الأقوال أنواع من الإلحاد: أحدها اذا زعم أن أفعال الحيوانات كلها جنس واحد وهي كلها حركات والحركات منها ثلاثة، لزمه من ذلك أن يكون الكفر من جنس الإيمان، والقول من جنس السكوت والعلم من جنس الجهل والحب من جنس البغض ((ولزمه على هذا القول أن لا يغضب النظام من لعنه وشتمه، لأن قول القائل لعن الله النظام مثل قوله رحمه الله)) ص٤٨، وعلى هذا نرى إن الجدل عقلي والنقاش فلسفي لو جرد من ألفاظ السب والشتم، ، وهو ما كان عليه الفكر الفلسفي في بغداد.

وبحدودها وبيئتها، وضربت بجذورها في أعماق الأرض، بعد أن ترعرعت في أحضان علم الكلام ومنه صاغت أولى جدائلها حتى جاءت الترجمة فصيرتها فلسفة على عكس (علم الكلام) الذي قام فجأة فتى شابا لم تكن له طفولة، احتضنه القرآن الكريم كواحد من علومه، هدفه ((الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية))[1]، وهو بهذه الصفة كما أسلفنا ((النتاج الخالص للمسلمين))[2]

إن علماءنا الأبرار وعند تجريد فتاويهم تلك من الألفاظ الحادة نجدهم يلجئون إلى دليل العقل في إثبات صحة أفكارهم، وهو نفس الدليل الذي يستعمله المتكلمون والفلاسفة في نقاشاتهم مع خصومهم وهذا هو بعينه الفكر الفلسفي المطلوب، وهذا يعطي الدليل على أن الخلاف بين علمائنا في هذا الشأن ليس في المضمون بل في الصورة والشكل فهم أذن غير مختلفين في الأصول.

قام علماء الكلام في بغداد وفي المقدمة منهم أهل الاعتزال بجهد كبير لرد الخصوم المتربصين من غير آهل دينهم وحضارتهم، والمحاججة معهم على وفق الطرح العقلي فكانت بغداد ساحة للعرض الضخم لتلك الأفكار.

بين الفيلسوف والمتكلم

وأرجو أن لا يذهب ذهن البعض إلى آن الفلسفة العربية الإسلامية وعلم الكلام أساسها هما متطابقان تطابقاً كبيراً، أو أن من مهام علم الكلام إنشاء فلسفات ومدارس فكرية، بل أن المتكلم المسلم يختلف عن الفيلسوف العربي

---

١ ابن خلدون، المقدمة، ص٤٨٦.

٢ هنري كوربان، المرجع السابق، ص١٦٩ فما بعد، وينقل ابن النديم في الفهرست: ((أول من تكلم في القدر (الكلام) أبو يونس الأسواري، وتابعه معبد الجهيني، ويقال أن سليمان بن عبد الملك تكلم فيه))، ص٢٠١.

المسلم ((منطلقاً ومنهجاً، وهدفاً، حتى لو عالجا موضوعاً واحداً))[1] إن سبب هذا الاختلاف يعود إلى الاختلاف في المنهج والمنطلق لكل من المتكلم والفيلسوف الإسلاميين، أكثر منه خلافاً في الهدف أو خلافاً في المحتوى والمضمون.

المتكلم في بغداد وكذلك الفيلسوف فيها، عالجا موضوعات واحدة تتماثل أو تتقارب في كثير من الأحيان مثل (واجب الوجود) سبحانه، صفاته، علمه، صنعه، الوجود، الكون، مسؤولية البشر في هذه الدنيا وقيمهم الأخلاقية والميعاد والبعث والقدر خيره وشره وغيرها من أمور تفصيلية، فلكل منهما منطلقه ومنهجه وإن عالجا الموضوع ذاته فإن هدفهما واحد لا يتعدى تكريس المفاهيم الإيمانية وإن اختلف مسلكهم.

المتكلم العربي المسلم في بغداد يدرك واجبه وهو الدفاع عن العقائد الإيمانية والمسلمات الإسلامية الكبرى بالأدلة العقلية، وفقاً لمنهجه ومنطلقاته ومسالكه، في حين ينطلق الفيلسوف العربي الإسلامي منطلقاً آخر ويسلك طريقاً غير الطريق الذي سلكه المتكلم، يساعده في ذلك منهج مختلف ومنطلق محسوب النتائج كي يلتقيا في نهاية الشوط في المحطة ذاتها التي تخدم هذه الأمة...[2] كان سلفنا الصالح من المتكلمين في بغداد يكافح النزعات التبشيرية وأهل البدع والضلالة بما عنده من وافر الأدلة العقلية، ويتضامن مع الحضارة من حوله في أمورها الإنسانية، ولا يرفض الفلسفة الإغريقية أو غيرها بما هي فلسفة أو طرح فكري بل يتحاور معها يأخذ منها ويعطي، لا يرفض العصر بما فيه من علم وثقافة، وهو في الوقت نفسه لا يمكن أعداءه من أحد اثنين، وهذا يفسر تعدد

---

١ الآلوسي، دراسات في الفكر الإسلامي، ص١٧١.

٢ دراستنا، لماذا فلسفة التاريخ، دراسة مستقبلية، ضمن بحوث مؤتمر الفلسفي الثاني. بغداد، بيت الحكمة، آذار/٢٠٠١.

مذاهب المتكلمين وتباين مواقفهم في الاجتهاد في الفروع والجدل في الجزيئات، الهدف من ذلك كله الدفاع عن العقيدة ودفع الضرر عنها بوسائلهم المعروفة.

كان السلف الصالح من العلماء يختلفون في الأصول وفي الفروع، ولكن كانت صدورهم مملوءة بالرهبة من الله، وأنفسهم ممزوجة بالأدب الرفيع، تجملها مكارم الأخلاق وتخالطها روح الإسلام وسماحته، كان هذا الروح العلمي مع حسن النية وابتغاء الحق لذاته يقرب شقة الخلاف بين المتخالفين أو يزيلها فلم تنقطع مع الخلاف صلات القربى، ولا وشائج الأرحام، وهذا لا ينفي العقول المتحجرة هنا وهناك الذين يرمون من خالفهم بالكفر والإلحاد، وكأن الآخر قد خرج عن الدين، وهو وحده المصلح المجتهد[1]...

كان الفيلسوف العربي المسلم في بغداد، كأخيه المتكلم العربي المسلم، مملوءً صدره بالرهبة من الله وهو ينطلق في طرحه من أرضه الخاصة...

الخطاب الفلسفي في كل زمان ومكان يبدأ بلا مسلمات إلا ما يمليه عليه عقل الفيلسوف وثقافته المتعددة المسالك واطلاعه على علوم عصره وما ترجم منها بما فيها الأفكار المغايرة لأفكار قومه، وسيلته عقله ومقايسة تجاربه، للوصول إلى هدفه وهو معرفته الحقيقية التي تعينه في رسم وسائله التي يوفق بها بين طروحات دينه ومفاهيم عصره ومستلزمات التقدم والعصرنة[2]، ولذا لا يمكن الفصل في النتيجة النهائية بين فكر المتكلم في بغداد وفكر الفيلسوف العربي المسلم، فكلاهما قد فهم الحياة كما يفهمها العقلاء في هذه الأيام، فسعوا إلى علم ما لم يعلموا، وبالغوا في الطلب، ولم ينشبوا حرب العداوة بين العلم والدين لأنهم

---

١ عرفان عبد الحميد، الفلسفة في الإسلام، ص٧٥-٨٥، الالوسي، المرجع السابق، ص٧٢ فما بعد.

٢ الآلوسي، المرجع السابق، ص٩١. عرفان عبد الحميد، المرجع السابق، ص٨١.

فهموا سر الحياة وروح المجتمع وأمزجة الأمم، وراعوا تقلبات العصور وتراكم الحضارة فاختلفوا واختلفت طروحاتهم تبعا لهذا كله[1]...

المتكلم والفيلسوف في بغداد يتفاعلان تفاعلا ديناميكيا مع التاريخ سواء تاريخ أسلافهم أو حركة معاصريهم، وكان المتكلم المسلم في هذه المدرسة الأداة الأكثر نضجاً والأكثر أهلية لمعالجة المسائل النظرية باتجاه مسائل المدارس الأخرى والمدارس التبشيرية منها على وجه خاص، وكذلك المتكلم المسلم أجدى وانفع من الفيلسوف في مواقف السياسة ومسائلها المتغيرة، آما الفيلسوف فهو الأنفع في استلهام الفكر المعاصر له ومرجعياته في الفكر الإسلامي للوصول إلى العالمية والدفاع عن المعتقد بأسلوب آخر جديد، يصبو إلى ذات الهدف الذي دفع المتكلم بكلامه من حيث النتائج والتأسيسات لا من حيث المنهج والمنطلق...

إن الفكر الفلسفي الذي قدمه الفيلسوف في بغداد للمشكلات الفلسفية المطروحة لا يبتعد عن الفكر الذي طرحه المتكلم فيها في محصلته النهائية، فكلاهما ينطلق عن نظرة روحية مثالية وليس فيها موقف آخر مغاير، وإن الخلاف إنما هو في إطار الطرح والمسالك. ولعل في فلسفة الرائد الأول لمدرسة بغداد الفلسفية الكندي أمثلة كثيرة. ولو أخذنا مثلا مشكلة كبيرة اختلف فيها القوم وهي مشكلة (أصل العالم) لوجدنا القوم يمثلون أربعة طروحات يلتقون بعدها في نقطة واحدة تميزهم عن أصحاب الفلسفة المادية وينضُّوون تحت خيمة الفلسفة المثالية التي طورها فلاسفتنا ومسحوا عنها غبار الزمن الذي يفصلها عن تاريخ الإغريق وأضافوا لها من دينهم وبيئتهم ما جعلها فلسفة إسلامية تنبض بالحياة.

الأطروحة الأولى: قال بها معظم متكلمينا ومنهم الغزالي الذين وجدوا أن الله سبحانه خلق العالم من لا شيء لا على سبيل الفيض وليس من الأزل بل في

---

١ فصل هذا الأمر، الدكتور حسام الآلوسي، في كتابه (حوار بين الفلاسفة والمتكلمين)، ص٣٠ فما بعد، وكتابه دراسات... ص٦٢ فما بعدها.

زمن مخصوص له بداية بمقتضى إرادة الله التي اقتضت أن وجوده في وقت معين فأوجده ((كن فيكون))[1].

الأطروحة الثانية: من يقول بأن الله (صانع) للعالم كما يصنع النجار وسائله من الخشب أي أن الله صنع صور الأشياء وتراكيبها من مادة أولى قديمة، وأبرز من قال هذا من مفكرينا أبو بكر محمد بن زكريا الرازي الطبيب[2].

الأطروحة الثالثة: من يقول: إن الله قديم والعالم قديم، بمادته وصورته وزمانه، ولكن الله تعالى بقدرته (علة غائية للعالم) بمعنى أنه المحرك على سبيل العشق[3] وأبرز من يمثل هذا الرأي من مفكرينا ابن رشد، مع اختلاف في وجهات النظر..

الأطروحة الرابعة: لمن يقول إن الله تعالى أبدع العالم إبداعاً ليس من مادة قديمة بل على سبيل الفيض كما يفيض الشعاع من الشمس، وهذا الفيض أزلي فالعالم قديم بالزمان محدث[4] بالذات ويمثل هذا الاتجاه من مفكرينا الفارابي وابن سينا وأمثالهما[5]...

المحصلة النهائية لطروحات متكلمينا وفلاسفتنا تنتهي بنهاية واحدة وإن اختلفت المسالك وتعددت الأطر والمنطلقات والمناهج، ولكن الهدف واحد هو إثبات أن أصل العالم (ممكن الوجود)، خلقته أو صنعته أو فاضت عنه قوة

---

1 سورة يس، من الآية (٨٢)، ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ج١، ص٩ فما بعد.

2 ابن حزم، المصدر السابق، ج١، ص٩ فما بعد.

3 ابن حزم، المصدر السابق، ج٢، ص١١٧.

4 ابن حزم، المصدر السابق، ج٢، ص٥٤، الشهرستاني، الملل والنحل، ج٣، ص٩٤.

5 فصل تلك الطروحات وباستيعاب كامل، الآلوسي، حوار بين الفلاسفة والمتكلمين، ص٧١ وما بعدها.

روحية غير مادية هي (واجب الوجود) سبحانه (الله لا إله إلا هو)، كان الدافع لاختلافهم هو تصورهم لله تعالى تصوراً خاصا يليق به سبحانه، فهم جميعا مجتهدون ضمن إطار الفلسفة المثالية، وتأسيسا على ذلك يبقى علم الكلام في جوهره العام إسلامياً بحتاً ولم تلبسه العناصر اليونانية لباسها وإن انمزج -وعلى الخصوص بعد القرن السادس الهجري- بالفلسفة لأنها فلسفة هو صيرها وجاءت من رحمه، وسميت الفلسفة العربية الإسلامية.

إن البعض من السلف الصالح قد انفتح على علوم الإغريق ودرس طروحات فلاسفة الشرق، واستوعب طروحات الديانات الأخرى بعمق، وما ذلك إلا سعة في الأفق وأصالة في التفكير وحرصاً على مصير الأمة. فقد وجد هؤلاء عليهم الرحمة: أن الانفتاح على علوم العصر واللحاق بركب العلم والحضارة (فرض عين) على كل قادر عليه لازم التحصيل أنى كان المصدر[1]، وكيفما كان السبيل. فلا نقاش في ضرورة الأخذ والإفادة من التجارب الغنية التي أنتجتها الإنسانية على اختلاف عصورها، ولكن النقاش في الكيفية التي جرى ويجري بها هذا الأخذ، والنتيجة التي آل ويؤول إليها...

إن امتزاج علم الكلام في بغداد بالعلوم الفلسفية فيها، وكذلك تأثر طروحات علم أصول الفقه بهذه العلوم، مسألة حضرية ومستلزم عصري تقره سنة التطور، وإن اعترض عليه شيوخنا الأجلاء من الفقهاء والمحدثين وقاوموه مقاومة عنيدة وعدوها بدعة وضلالة، وما ذلك آلا الاجتهاد في أحكام الدين الذي فيه ثراء للفكر ولا يضر المسيرة بشيء، فمن أصاب في اجتهاده فله الأجر والحسنات ومن أخطأ ونيته سليمة فلا يضيع الله أجر من أحسن عملا. إن علم الكلام والفلسفة

---

١ ينقل ابن عبد ربة في كتابه (العقد الفريد) أنهم (قالوا: إذا وجدتم الحكمة مطروحة على السكك فخذوها)، ج١، ص١٦١.

خاصة والعلوم العقلية عامة تنمو وتزدهر في المناظرة والنقاش والجدل المجدي...

إن محاولات مزج الفلسفة العربية الإسلامية بعلم الكلام ومن ثم بعلم أصول الفقه، مزجاً منطقياً بحتاً كانت منذ زمن مبكر منذ النشأة الأولى قعد الكندي لها قواعد وأسس لوفاقها الأسس، ثم جاء من بعده أقوام آخرون توجتها محاولات ابن سينا وكان له في ذلك شأن، ثم جاء الغزالي فبنى هذا المزج على أسس وجوهر الإسلام. وكان ما قدمه شراح ابن سينا لاسيما في كتابه ((الإشارات والتنبيهات)) إسهامة في وضع القواعد الأكثر تفصيلا في التأسيس الفلسفي لعلم الكلام خاصة وغيره من العلوم العقلية، شيد على ذلك التأسيس العلامة ابن المطهر الحلي (ت ٧٢٦/١٣٢٦م) صرحاً ما زال عامراً[١]، لأن الفلسفة بالأساس منطلق عقلي وحركة ذهن الإنسان للنظر في الكون والحياة وهي أمور تهم الفيلسوف بمقدار ما هي من واجبات علماء الكلام. ومن هنا ينبغي أن نعرف أن الغزالي الفقيه الأصولي المفكر الإسلامي العظيم كان متفلسفاً حتى في أبعد كتبه عن الفلسفة ((المنقذ من الضلال))، وأنه مزج علم الكلام بالعلوم العقلية وفي المقدمة منها الفلسفة الإسلامية مزجاً لا يحتاج إلى كثير تأمل لتشخيصه...

أوائل أهل الكلام في الإسلام

لم يكن المعتزلة اقدم من زاول علم الكلام على وجه الإطلاق، ولو أنهم كانوا يؤلفون فرقة كبيرة ذات طابع تأملي، اتخذ من العقل مسلكاً للحجاج عن العقيدة بالأدلة العقلية، فقد سبقهم أقوام كثيرون ولعل الأمثلة كثيرة وكثيرة جداً

---

١ يعد العلامة ابن المطهر الحلي، من أهم الفلاسفة بعد ابن رشد، وعلى الخصوص في كتابه ((الأسرار الخفية في العلوم العقلية))، تحقيق د. حسام الآلوسي وصالح مهدي هاشم، بيروت، ١٩٧٥، منشورات مكتبة المتنبي، و يعاد طبعه الآن ثانية.

نقرؤها في كتاب شرح نهج البلاغة أو في كتب الفقهاء وأهل الحديث أو في كتب المرجئة وكتب الخوارج.

ولكن المعتزلة يقولون انهم اخذوا علم الكلام عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي أخذه عن ملك الوحي جبريل. ينقل ابن النديم في ((الفهرست)) نقلا عن أبي الهذيل العلاف رأس المعتزلة ومن مؤسسي علم الكلام في بغداد قوله: ((أخذت هذا العلم (علم الكلام) عن عثمان الطويل الذي أخذه عن واصل بن عطاء، وإن واصلا أخذه عن أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية وإن عبد الله أخذه عن أبيه محمد بن الحنفية، وإن محمداً أخذه عن أبيه علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وأن أباه علياً أخذه عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وإن رسول الله أخذه عن جبرائيل الذي نزل به عن الله تعالى)) [1]

كان المعتزلة من أوائل المتكلمين في بغداد وليس أولهم فقد سبقهم إلى ذلك متكلمو الكوفة الذين نزلوا بغداد. كان زرار بن أعين من أكبر الرجال ((معرفة بالكلام))[2]، وكان هشام بن الحكم ((حاذقاً بصناعة الكلام حاضر الجواب))[3]، وكان هؤلاء وآخرون من طلاب الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) ممن مارس علم الكلام[4]...

هكذا هي الفرق الإسلامية كل له سنده الذي أقتبس العلم منه وتتلمذ على منهجه، وتوجه منطلقاته، وهذا آن دل على شيء فإنما يدل على عظيم فضل تلك السلاسل الذهبية ومزيد علمها وتمكنها من طروحات الحياة في زمان أصحابها....

---

١ ص٢٠٢.

٢ ابن النديم، الفهرست، ص٢٧٦.

٣ أبن النديم، المصدر السابق، ص٢٢٣-٢٣٤.

٤ المفيد، الإرشاد، ص٢٥٢، الكشي، الرجال، ص٥٥.

يمتد زمن علم الكلام على ما قرره القاضي عبد الجبار المعتزلي ونقلها عنه ابن المرتضى في كتابه ((المنية والأمل...))، إلى عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

وكانت أولى طبقات: أهل الكلام المعروفين بالعدل والتوحيد، هي الطبقة التي ضمت نخبة من أصحاب الرسول كان في طليعتهم الخلفاء الراشدون (رضي الله عنهم)، وكان فيهم أيضاً عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمر وأبا الدرداء وأبا ذر الغفاري وعباد بن الصمت (رضي الله عنهم).

وكانت الطبقة الثانية: تضم جملة ما تضم الإمام الحسن والإمام الحسين ومحمد ابن الحنفية أبناء الأمام علي بن أبي طالب (عليهم السلام)، وتضم إلى جانب أولئك الإمام علي بن الحسين زين العابدين وابنه الإمام محمد الباقر (عليهم السلام) ومن هذه الطبقة من التابعين سعيد بن المسيب ومن هذه الطبقة أبو الأسود الدؤلي وعلقمة والأسود وشريح وغيرهم (رضي الله عنهم)

وكانت الطبقة الثالثة: في أبي هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية وهو الذي درس عنده واصل بن عطاء وتخرج عليه، ومنهم الحسن بن محمد بن الحنفية وزيد بن علي بن الحسين ومحمد بن علي بن عبد الله بن عباس ومنهم عبد الله ومحمد ذو النفس الزكية وإبراهيم أبناء حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ومنهم العالمان الجليلان محمد بن سيرين والحسن البصري الذي اعتزله تلميذه واصل بن عطاء (رضي الله عنهم).

الطبقة الرابعة: وذكر منهم غيلان بن جهم الدمشقي وواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وجملة من أصحابهم الذين كلفهم واصل بالسفر إلى أمصار العالم الإسلامي ذلك العصر للدعوة إلى الاعتزال... وكانت هذه الطبقة هم شيوخ الفكر الفلسفي الذين أسسوا الفكر الفلسفي في بغداد وكانوا مراجعه.

قد لا نبالغ إن قلنا: إن علم الكلام قد بلغ أوج عظمته في (مدرسة بغداد الفلسفية) منذ البواكير والنشأة، فقد بلغ عمر علم الكلام عند التأسيسات الأولى لهذه المدرسة في بغداد أكثر من قرن، كان الخليفة المنصور مؤسس مدينة السلام بغداد هو المؤسس والمشجع، متأثرا بصديقه المتكلم عمرو بن عبيد (ولد ٨٠هـ-٦٩٩م، توفي ١٤٤هـ-٧٦١م) وعمرو هذا هو من مؤسسي فرقة المعتزلة فقد ((كان صديقاً لأبي جعفر المنصور ومقدماً لديه وله معه أخبارٌ)) تشير إلى حبه واحترامه لهذه الشخصية...[1]

وبعد فقد بلغت المعتزلة أوج ازدهارها في خلافة المأمون، وكان رأسها في بغداد أحمد بن أبي دؤاد مقدما عنده يحضر الجدل بين العلماء في مسألة (خلق القرآن)، ثم صار وجيها عند أخيه الخليفة المعتصم، وامتد عز المعتزلة إلى أيام الخليفة الواثق حتى جاءت خلافة المتوكل فقلب الموازين وحاربها شيئاً بعد شيء، ثم اشتد عليها وقرب مناوئوها وأقصى رجالها عن مناصبهم[2]...

---

١ ابن خلكان، وفيات الاعيان، ج٤، ص٢٦٢.

٢ السيوطي، تأريخ الخلفاء، ص١٣٢.

obeikandl.com

المبحث الثالث:

العلاقة بين علم الأصول

وعلم الكلام والفلسفة العربية الإسلامية

إن علم الأصول في كثير من جوانبه شديد الصلة بالفلسفة وبمناهج المعرفة الفلسفية لما فيه من تحليلات منطقية وقواعد منهجية تحمل شارات فلسفية. وعلم الكلام كذلك هو أيضاً طغت عليه المفاهيم الفلسفية بل أضحى في القرن السابع الهجري والقرون التي تلت مظهرا من مظاهر التفلسف، بل لبست تلك العلوم العقلية كافة ثوب الفلسفة بصيغة أو بأخرى، ونعني بالفلسفة هنا وعلى وجه التحديد الفلسفة العربية الإسلامية وليس الفلسفة بصيغتها المطلقة، أو كما هي عند فلاسفة اليونان أو الفلاسفة المحدثين.

إن التأسيس الفلسفي العربي الإسلامي عامة، وفي (مدرسة بغداد الفلسفية) على الخصوص بني على أربع ظواهر رئيسة. أولها علم الكلام ثم تولدت من رحم علم الكلام الظواهر الأخرى. إن كل العلوم العقلية الإسلامية منشؤها وأساسها (علم الكلام)، وبقية العلوم الأخرى أجزاء منه. و أول من تفرع عنه هو (علم أصول الفقه) ومن ثم (الفلسفة العربية الإسلامية) بصفتها العربية الإسلامية على التحديد وتبعهما (علم التصوف الإسلامي) الذي كان منشؤه واصله بغداديا، وهو بالتأكيد حركة عقلية ظاهرة...

فعلم الكلام والحالة هذه هو العلم الكلي وسائر العلوم علوم جزئية[1]، وعلى الخصوص منها العلوم العقلية مثل علوم أصول الفقه، وعلم التصوف الإسلامي بما هو علم والفلسفة العربية الإسلامية، ويلحق بهذه العلوم، العلوم الدينية النقلية: كعلم الفقه وعلم التفسير ودراية الحديث ونحوها من علوم القرآن، وعلى وفق هذا فإن علم الكلام هو العلم الأعلى في الرتبة بين العلوم[2]، لأسباب معلومة واضحة، لأن عالم التفسير يفسر كتاب الله العظيم القرآن الكريم، وهو لا ينظر إلا في معنى الكتاب خاصة، سوره وآياته ناسخه ومنسوخه، مكية ومدنية، أسباب نزول آياته ونحو ذلك من معاني لا تخرج منها إلا بمقدار ما تعود إليها[3].

أما المحدث، فهو عالم بحديث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، قوله وفعله وتقريره،[4] أما الفقيه فهو لا ينظر إلا في أحكام أفعال المكلفين خاصة: كالوجوب والحظر، والإباحة والندب والكراهة، وكون هذا العقد صحيحاً، أم فاسداً أم باطلاً، وكون العبادة قضاء أم أداء، وأمثال هذه الأمور، التي ألحقها

---

١ الإمام الغزالي، محمد بن محمد (ت ٥٠٥/١١١١م)، كتاب إحياء علوم الدين، دار صادر، بيروت، ط١، ٢٠٠، ج١.

٢ الإمام الغزالي، المستصفى من علم الأصول، باعتناء د. محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥، ج١، ص١٠-١١.

٣ قال الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (رضب الله عنه) ((أيها الناس تعلموا كتاب الله تعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله))، ابن عبد ربة، العقد الفريد، تقديم خليل شرف الدين، منشورات مكتبة الهلال، بيروت، بلا ت، ج١، ص١٦٥ .

٤ قسم الغزالي العلوم في كتابه (إحياء علوم الدين) إلى ثلاثة أقسام محمودة ومذمومة ومباحة، والمحمودة على قسمين فرض عين وفرض كفاية، واختلف الناس في العلم الذي هو فرض عين، وكل فريق جعل الوجوب على العلم الذي هو بصدده ((قال المفسرون والمحدثون: هو علمهم إذ به يتوصل إلى العلوم كلها...)) وهكذا قال غيرهم.

الإمام الغزالي بعلم الدنيا والحق علماء الفقه بعلماء الدنيا،[1] لأن ((الفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بالشهوات... لتنتظم باستقامتهم أمورهم في الدنيا)).

والأصولي عالم الأصول: لا ينظر إلا في أدلة الأحكام الشرعية خاصة، ولا يتعداها، غايته الاستنباط من أدلتها الأحكام الشرعية لتكون آلة تعصم عالم الفقه وحكمه وفتواه من الشطط[2] وهذه العلوم على عظمتها فهي علوم جزئية وإن كان بعضها يكمل البعض، على خلاف علم الكلام الذي يضبط قواعد العمل بها: لأن علم الكلام هو الذي ينظر في أعم الأشياء لا في خواصها كما يفعل عالم الفقه والأصول أو المحدث والمفسر ونحوهما، فهو والحالة هذه يجد العلوم الدينية الأخرى عالة عليه...

وعلى وفق ذلك يقرر الإمام الغزالي أن ((الأصولي يأخذ بالتقليد من المتكلم)) في القواعد التي اعتمدها علم الكلام، مثلاً على ذلك القاعدة التي اعتمدها علم الكلام ((إن قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) حجة ودليل واجب الصدق))[3]، ونحوها من قواعد.. الأصولي لا يشغل نفسه فيها بل عليه أن ينظر في وجوه دلالتها وشروط صحتها ونحو هذه من قواعد، على وفق ما قرره علمه (علم الأصول)، ((فكل عالم بعلم من العلوم الجزئية، مقلد لا محالة في مبادئ علمه))[4] للعلم الكلي الذي هو علم الكلام... وبناءً عليه فأن تقريرات علم الكلام

---

١ الغزالي، كتاب المستصفى من علم الأصول، ج١، ص١٢ .

٢ قالت بعض الفرق الكلامية: إن ظهور المهدي مرهون بارتفاع عمل الفقهاء والاصوليين، ووجد الصوفي ابن عربي (إذا خرج هنا المهدي، فليس له عدو مبين إلا الفقهاء خاصة)، الفتوحات المكية ج٣، ص٤٤١

٣ الغزالي، المستصفى من علم الأصول، ص١١-١٢.

4 المصدر السابق، ص١٢

هي قواعد لعالم الأصول، وعلم الأصول في تلك القواعد الكلامية مقلد لعلم الكلام[1] وهذا لا يعني التقليل من أهمية علم الأصول أو أي علم من العلوم الجزئية، أو إنها علوم على الهامش، بل هي من العلوم العقلية النقلية، ((وأشرف العلوم ما ازدوج فيه العقل والسمع واصطحب فيه الرأي والشرع)) وعلم الأصول بالتأكيد هو من هذه العلوم الشريفة، ولكنه جاء من رحم علم الكلام مثله كمثل العلوم العقلية الأخرى وليس من علم الفقه كما قد يتبادر لأول وهلة، لأن علم الفقه في حقيقته علم يختص بالأحكام الشرعية للأفعال الإنسانية فهو من العلوم التطبيقية، أما علم أصول الفقه فهو العلم المتكفل بأدلة هذه الأحكام ومعرفة وجود دلالتها على الأحكام ((من حيث الجملة لا من حيث التفصيل))[2] ومن حيث صيغتها أو مفهوم لفظها أو مجرى لفظها أو معقول لفظها...

ويتهم الغزالي علماء الأصول آن مفاهيم علم الكلام طغت على طروحاتها الأصولية ((لغلبة الكلام على طبائعهم فحملهم حب صناعتهم على خلطه بهذه الصنعة))[3]... وذاك نتيجة حتمية يستوجبها التطور وطبيعة الأشياء...

إذن علم أصول الفقه في بغداد خاصة نشأ متأخراً عن علم الكلام لأنه (من الفنون المستحدثة في الملة وكان السلف في غنية عنه)[4] كما يقول ابن خلدون معللا ذلك بما لديهم من ملكة لسانية وقرب من عصر الرسالة.

وكما قال طاش كبري زاده ((أزال نور الصحبة عنهم ظلمة الشكوك والأوهام))[5] وإن هذا راجع إلى ((صفاء عقائدهم ببركة الصحبة وقرب العهد

---

1 المصدر السابق، ص١١

2 الغزالي، المستصفي من علم الأصول، ص١١.

3 الغزالي، المستصفي من علم الأصول، ص١٥.

4 المقدمة، ص٤٥٤.

5 طاش كبرى زاده، عصام الدين احمد (ت٩٦٨/١٥٦٠م)، (مفتاح السعادة)، ج٢، ص٣٢.

بزمانهم وتمكنهم من الرجوع إلى الثقات)) كما يعلل التفتازاني[1]... و ينقل حاجي خليفة عن صاحب كتاب ميزان الأصول.. ((إن أصول الفقه فرع لعلم أصول الدين (علم الكلام) فكان من الضرورة أن يقع التصنيف فيه، وقد نشأ متأخراً عن العلوم العقلية الأخرى))....

في زمن الوحي كان القرآن الكريم مؤسس المرجعية المعرفية والسلوكية في التنظير والتطبيق وكان الأساس في الوعي الحضاري وقد جاءت فيه جملة من أمهات الأحكام في خمسمائة أية تقريباً. .. ثم كانت في ضوئه ولتفسيره السنة النبوية المطهرة، ثم وبعد أن توسع الأفق ((ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً))[2] احتيج إلى (الفقه الأكبر) كما سماه الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت ((لاستنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية)) أو ((للنظر في الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام والتكاليف)) بعد أن انقرض السلف الصالح وذهب الصدر الأول وانقلبت العلوم كلها صناعة فاحتاج الفقهاء المجتهدون إلى تحصيل هذه القوانين والقواعد فكتبوها فناً قائماً برأسه[3]، سموه علم أصول الفقه لأنه ((الصناعة التي يقتدر الإنسان على أن يستنبط تقدير شيء مما لم يصرح به صاحب الشريعة سبحانه))[4]...

وقد تعددت التعاريف في هذا العلم، قد يبلغ عددها بعدد العلماء الذين صنفوا فيه.. منهم من اختلف في ملاك الألفاظ، واتفق في مجمل المعنى، فهو عندهم ((القواعد الممهدة لاستنباط الأحكام الشرعية الفرعية من أدلتها)) ونجده

---

١ (شرح العقائد النسفية)، ص١١... وقد درس هذه المسألة بإسهاب الدكتور حسام الآلوسي في كتابه (دراسات)، المصدر السابق، ص٦٩.

٢ سورة النصر، آية (٢).

٣ ابن خلدون، المقدمة، ص٤٥٤.

٤ الفارابي، تقسيم العلوم، ص٧٠.

عند آخر ((هو العلم بالعناصر المشتركة في عملية استنباط الحكم الشرعي)) ونجده عند آخرين ((كيفية استنباط الأحكام من المصادر الأصلية)) ونحو ذلك كثير[1]...

ومجمل القول: أن علم أصول الفقه هو آلة تعصم الفقه عن الخطأ في اقتناص المطالب المجهولة من الأمور الحاصلة المعلومة، كما هو المنطق آلة تعصم الفكر من الخطأ والشطط.

علم أصول الفقه في بغداد ولد من رحم علم الكلام كما أسلفنا، ولم ينشأ في أحضان علم الفقه كما يتبادر إلى الذهن لأول مرة، لأن العلوم العقلية كلها نشأت في أحضان علم الكلام، من أجل تقويم العلوم النقلية والعمل على تطويرها وتقعيد القواعد الفكرية لها والحجاج عنها بالأدلة التفصيلية... وكانت المصادر التاريخية تجمع على أن الإمام الشافعي (رضي الله عنه) هو أول من كتب في علم أصول الفقه عندما كان في بغداد بل من المصادر من يقول إن الشافعي (ت ٨١٩/٢٠٤) كان واضع هذا العلم، وإن أفكاره كانت وسطاً بين (مدرسة الحديث) المدنية و(مدرسة الرأي) الكوفية، متأثراً ببيئة بغداد التي كان يسكنها، ووجد ابن خلدون أن الشاقعي ((كان أول من كتب فيه، أملى رسالته المشهورة، تكلم فيها في الأوامر والنواهي والبيان والخبر والنسخ وحكم العلة المنصوصة من القياس))[2]، ولم يكن كتاب الشافعي (الرسالة) هو وحده الكتاب الأساس ((لعلم أصول الفقه)) فإن كتاب الشافعي (الأم) تناول بعض مسائل هذا العلم أيضاً، ويجد البعض في إملاء أبي حنيفة (رضي الله عنه) مقدمات لهذا العلم وكان صاحبه أبو يوسف (ت ٧٩٨/١٨٢م) قاضي قضاة بغداد زمن الخليفة هارون الرشيد هو أول من وضع

---

١ المظفر، الشيخ محمد رضا، (أصول الفقه)، ج١، النجف، ١٩٦٨، ص١٥.

٢ المقدمة، ص٤٥٥.

الكتب في أصول الفقه)[1]، كما كان لمحمد بن الحسن الشيباني (ت ١٨٩هـ/٨٠٥م) صاحب الإمام أبي حنيفة أيضاً كتاب في ((أصول الفقه))[2]، وكان لهشام بن الحكم صاحب الإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام)، كتاب (الألفاظ)[3] عده البعض مقدمات لعلم أصول الفقه، ومع هذا يبقى الإمام الشافعي مقعد القواعد لهذا العلم ولكن ((من المسلم به فلسفة وعقلاً إنه لا شيء من مثل هذا يحدث من لاشيء))[4]، فإن بعض مباحث هذا العلم قد ذكرها العلماء قبل الشافعي وجرت بها ألسنتهم، فإنهم كانوا يرجعون إلى أصول استنباط الأحكام من أدلتها، وفي قياس المجهول على المعلوم، كما كانوا بلا ريب يبحثون في الناسخ والمنسوخ في الكتاب والسنة، وهذا الطرح مع أهميته لا يتعارض وقول فخر الدين الرازي: إن نسبة الشافعي إلى علم الأصول كنسبه أرسطوطاليس إلى علم المنطق، وكنسبة الخليل بن أحمد إلى علم العروض، وذلك أن الناس كانوا قبل أرسطوطاليس يستدلون ويعترضون بمجرد طباعهم السليمة، ولكن أرسطوطاليس وضع لهم قانوناً في ترتيب الحدود والبراهين، وكذلك الشعراء: كانوا قبل الخليل بن أحمد ينظمون الأشعار وكان اعتمادهم على مجرد الطبع، فاستخدم الخليل علم العروض، وكان ذلك قانوناً كلياً في مصالح الشعر ومفاسده[5].

في (مدرسة بغداد الفلسفية)، تأسست قواعد علم الأصول فكتب أبو حنيفة فيه مقدمات، وهشام بن الحكم قيده في كتابه ((الألفاظ)) وتوسع في مفاهيمه أبو يوسف الأنصاري قاضي قضاة بغداد وكذلك القاضي محمد بن الحسن الشيباني

---

١ ابن النديم، الفهرست، ص٢٨٦، ابن العماد/ شذرات الذهب، ج١، ص٣٠١.

٢ ابن النديم، المصدر السابق، ص٢٨٨، ابن العماد، المصدر السابق، ج١، ص٣٢٢.

٣ ابن النديم، المصدر السابق، ص٢٢٤، د. حسين علي الأعظمي، أصول الفقه، ص٩

٤ محمد يوسف موسى، تاريخ الفقه الإسلامي، القاهرة١٩٥٠، ص٢١٨ فما بعد

٥ مصطفى عبد الرازق، تمهيد لتاريخ الفلسفة، ص٢٣١ فما بعد

صاحبا أبي حنيفة النعمان، فهؤلاء الأعلام وغيرهم أضافوا إلى تلك القواعد ما جعلها اكثر تقعيداً ثم وضع الشافعي رسالته الأصولية المشهورة وتابعه احمد بن حنبل بالكتابة في هذا العلم ثم تتابع العلماء في هذا الفن بعد هؤلاء الأئمة المؤسسين...

وأدلة الأحكام في عصر الاجتهاد والتي اتفق عليها أئمة المدارس الفقهية رضوان الله عليهم هي على قسمين: مصادر أصلية وهي الكتاب، والسنة، حيث ((لا مساغ للاجتهاد في معرض النص)) وبخلافه كانت مصادر تبعية أرشدت إليها نصوص الكتاب والسنة وهي: الإجماع واختلف في الدليل الرابع أهو الرأي أم هو العقل؟...

ومن أشهر أنواع دليل الرأي دليل القياس، وبجانب تلك الأدلة المتفق عليها عرفت أدلة أخرى كانت موضوع نزاع شديد، أهمها الاستصحاب، والاستحسان، والمصالح المرسلة، وفتوى الصحابي، والذرائع، وشرع من قبلنا ونحوها[1]...

وكان الإمام داود الظاهري قد أبطل القياس بالكلية وحرم العمل به وبغيره من أدلة وقصرها على النصوص[2]... وسنشير بإيجاز إلى شيء من مفاهيم تلك الأدلة...

الأصل الأول من أصول الأدلة

كتاب الله تعالى ((كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حكِيمٍ خَبِيرٍ))،[3] ((لا يأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِنْ حكِيمٍ حَمِيدٍ))،[4] ((ولَمْ يجْعَلْ لَهُ عِوجاً

---

١ د. رشدي محمد عريان، العقل عند الشيعة الإمامية، مطبعة دار السلام، ص٤٠.
٢ المصدر السابق، ص٣٩-٤٠.
٣ سورة فصلت، آية ٧.
٤ سورة فصلت، آية ٤٢.

قَيِّماً لِيُنذر بأساً شَديداً مِنْ لدُنْهُ ويُبشِّر الْمُؤْمنين))[1] ((ما كان حديثًا يُفْتَرى ولَكِنْ تَصْديقَ الَّذي بيْن يديْه وتَفْصيل كُلِّ شَيْء وهُدى ورحْمة لقوْم يؤْمنون))،[2] ((إنَّا جعلْنَاهُ قُرْآنًا عربيًّا لَعلَّكُمْ تَعقلُون))،[3] وإنَّهُ لذكْرٌ لك ولقوْمك وسوْف تُسْألُون))[4] ((قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ ربِّك بِالْحقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذين آمنُوا وهُدًى وبُشْرى لِلْمُسْلمين))[5] ((وبِالْحَقِّ أنزَلْنَاهُ وبِالْحَقِّ نَزَل))[6] ((وقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرأهُ علَى النَّاسِ علَى مُكْثٍ ونَزَّلْنَاهُ تَنزيلاً))،[7] ((ولَوْ جعلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجميّاً لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَميٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذينَ آمَنُوا هُدًى وشِفَاءٌ))[8] ((إنَّا جعلْنَاهُ قُرْآناً عربيّاً لَعلَّكُمْ تَعقلُون))[9] ((قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذرَ أُمَّ الْقُرى ومَنْ حوْلَها وتُنْذر يوْم الْجمْع لا ريْب فيه[10])، ((أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً))[11]

---

١ سورة الكهف، آية ١-٢.

٢ سورة يوسف، آية ١١١.

٣ سورة يوسف، آية ٣.

٤ سورة الزخرف، آية ٤٤.

٥ سورة النحل، اية١٠٢.

٦ سورة الإسراء، آية ١٠٥.

٧ سورة الإسراء، آية ١٠٦.

٨ سورة فصلت، آية ٤٤.

٩ سورة الزخرف، آية ٣.

١٠ سورة الشورى آية ٧.

١١ سورة النساء، آية ٨٢.

obeikandl.com

((أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ))[1] ((إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً))[2] ((فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ))[3] ((وبَيِّنَاتٍ مِنْ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ))[4] ((هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا[5])).

(القرآن بلاغ وبيان وبينة)، (هو بشرى وبشير وبصائر)، (القرآن الكريم تبصرة وتبيان وتذكرة وتنزيل وتفصيل)، (القرآن حبل الله المتين)، (هو حكم وحكمة وحكيم)، (هو حق اليقين)، والذكر الحكيم والذكر المبارك هو الصراط المستقيم والعروة الوثقى، هو عزيز عجيب مبين مبارك، القرآن وحي الله تعالى، مجيد مصدق مطهر مفصل مهيمن، هو النذير هو البشير هو النور هو النعمة هو الهادي هو الهدى، ((القرآن ينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافي الإسلام وبنيانه، وأودية الحق وغيطانه، ومناهل لا يغيضها الواردون، ومنازل لا يضل نهجها السافرون، جعله الله رياً لعطش العلماء، وربيعاً لقلوب الفقهاء، ومحاجاً لطرق الصلحاء، وعلماً لمن وعى، وحديثاً لمن روى، وحكماً لمن قضى))[6]... ((لا تزغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء))[7] تحدى قوماً هم الغاية في الفصاحة، والنهاية في البلاغة، فقرع أسماعهم، وأعجز

---

١ سورة يونس، من آية ٣٨.

٢ سورة الجن، آية ١.

٣ سورة النحل، آية ٦٩.

٤ سورة البقرة، آية ١٨٥.

٥ سورة إبراهيم، آية ٥٢.

٦ ابن أبي الحديد، عز الدين أبو حامد عبد الحميد بن عبد الله المعتزلي، (ت ٦٦٨ -١٢٧٠م)، شرح نهج البلاغة، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة، ١٩٥٩)، ج٩، ص١٢٧، من خطبة للإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام).

٧ الترمذي، الإمام محمد بن عيسى بن سورة (ت ٢٧٩هـ-٨٩٢م)، سنن الترمذي، مصر ١٩٥٢.

أذهانهم، وذم آراءهم، وسفه أحلامهم، وأبطل سنتهم، ثم أخبر عن عجزهم مع تظاهرهم.

((قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يأْتُون بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا))[1]، مع كونه ((بِلِسَانٍ عربيٍّ مُبِينٍ))[2]((الكتاب المجيد))[3] تنسم روح الله تعالى فجاء رحمة بهذه الأمة، فأيقظها من رقدتها ونبهها من غفلتها، وانتشلها من بداوتها، فكانت به ((خَيْر أُمّة أُخْرِجتْ لِلنّاسِ))،[4] اجتمعت تحت لواء واحد، وتفاهمت بلغة واحدة ولسان متوحد، فكان القرآن نوراً من الله تعالى وبشارة ليس لأهله حسب بل للعالمين جميعا... ظلت نصوصه وحدها لفترة هي المؤسسة المرجعية المعرفية والسلوك في التطبيق والتنظير، وكان المرجع الأساس في الوعي الحضاري وفضيلة العلم والتعلم...[5]

القرآن الكريم أول نص إسلامي مكتوب وأول مصادر الشرع واستنباط الأحكام وأكثرها قيمة ((وليس هناك شك في قطعية ثبوته وتنزهه عن الخطأ))[6]، جمع على عهد رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم)، وكتبه أكثر من أربعين

---

١ سورة الإسراء، آية ٨٢.

٢ سورة الشعراء، آية ١٩٥.

٣ ينظر سورة يوسف، آية١.

٤ سورة آل عمران، آية ١١٠.

٥ دارستنا: القلم ومستلزمات التدوين في القرآن الكريم، مجلة البلاغ، العدد الثاني، أيار ١٩٧٠، ص٤٢-٤٧.

٦ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن الناصر الشافعي (ت ٩١١هـ-١٠٥٥م)، الإتقان في علوم القرآن، دمشق ١٩٤٢، ج١، ص١٠٣ فما بعد، ابن خلدون أبو يزيد عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، (ت ٨٠٨هـ-٤٠٥م)، المقدمة، (القاهرة بلا تاريخ)، ص٤٣٧؛ أبو القاسم الخوئي، البيان في تفسير القرآن، (ط٤، الكويت ١٩٧٩)، المدخل، ص٢٤ فما بعد.

كاتب وحي بإشراف النبي العظيم وبتوجيه منه[1]، فلا زيادة فيه ولا نقصان، وان ما قام به الخلفاء الراشدون (رضي الله عنهم) في زمانهم، ما هو إلا جمع لآياته وسوره من العسب والرقاع واللخاف والأكتاف والبرديات ونحوها من مستلزمات التدوين في ذلك العصر، وليس جمعاً من صدور الرجال وحسب كما هو رأي البعض،[2] فقد انتقل الرسول الكريم إلى الرفيق الأعلى والقرآن كله مكتوب وفي صدور الصحابة الأبرار محفوظ...

وإن ذا النورين الخليفة الراشد عثمان بن عفان (رضي الله عنه) جمع المسلمين على قراءة إمام واحد، بعد أن أحرق المصاحف الأخرى التي تخالف ذلك المصحف، لما خشي الفتنة عند اختلاف حروف القراءات، ولانتشار القراء في الأمصار بعد الفتح والتحرير، فأمر (رضوان الله عليه)، زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوا تلك الصحف في إمام واحد مرتب السور...[3]

أما القول في زيادته أو نقصانه فمما لا يليق به، لأن الزيادة مجمع على بطلانها،[4] وكذلك النقصان لقوله تعالى (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ[5])

---

١ السيوطي، مصدر سابق، ج١، ص١٢٤، الطوسي، ابو جعفر محمد بن الحسن (٤٦٠-١٠٦٩م)، البيان في تفسير القرآن، النجف ١٩٦٠، ج ١ فما بعد.

٢ المقدمة، ص٤٥٨

٣ الطبري، المصدر السابق، القسم الأول، ص١٢٥، وفصلت هذا الأمر كتب التاريخ الرئيسة كافة، السعودي، المصدر السابق، ج٢، ص٢٩٩.

٤ طبرسي، أبو علي الفضل بن الفضل، (٥٤٨-١١٥٣م)، مجمع البيان في تفسير القران، طهران، ١٨٨٦، ج١، ص١٢٤.

٥ سورة الحجر، آية ٩.

وإذا جاءت روايات بحدود ذلك فطريقها الأحاد التي لا توجب علما ولا عملا، والأولى الإعراض عنها وترك النظر أو التشاغل بها...[1]

القرآن الكريم هو أصل الأصول، وأدلة الاستنباط جميعها إليه تعود، وكلام رسول الله وسنته المطهرة (صلى الله عليه واله وسلم) جاءت مفسرة له ومعبرة عن أحكامه... وأما الإجماع فقد أجمع أهله على رواية تلك السنة المطهرة المفسرة للقران الكريم... فالإجماع إذن هو المخبر عن أحكام القران أيضا،[2] وأدلة الاستنباط الأخرى تربط الماضي بالحاضر المعاش على مر العصور والأزمان استلزمتها سنة التطور لتجعل نور القران قريبا من الناس تتعش في ظل حكم القران، وتزدهر بمقدار قربها منه وتخبو بمقدار ابتعادها عن وهجه، ..وعليه فإن الأحكام الشرعية أصلها واحد هو القران الكريم،[3] ولقد أعطى سلفنا الصالح لهذا الأصل الأولوية والأهمية، على وفق معطيات عصرهم ومستوى العلوم في زمانهم وطبيعة العلاقات الاجتماعية في بلدانهم والصيغ الاقتصادية في حوا ضرهم، ..وقد تكون مهمة علمائنا اليوم في عصر العولمة واقتصاد السوق، أكثر تعقيدا و أدق تفصيلا، وهذا يستلزم أن نسحب مشاكل العصر كي لا تبقى بعيدة عن وهج القرآن، وهذا يستلزم أن نعطي للعلماء والفقهاء والأصوليين وأصحاب الفكر الحر الجرأة والحصانة على حد سواء ليتلمسوا الواقع وصراع العصر وتفصيلات مشاكله، حتى تتمكن قرارات العلماء وتشريعاتهم المعاصرة من نور الله، وتعمل على محق السواتر التي تحجب نور القران من رعاية

---

١ الطبرسي، المصدر السابق، ج١، ص٣ فما بعد.

٢ الغزالي، المستصفى من علم الأصول، ج١، ص١١٩-١٢٤.

٣ المصدر السابق، ج١، ص١١٩.

مصالح الناس بما يربطهم بالحداثة ويبعد عنهم شبح التقليد الأعمى السابق،[1] فلكل زمان رجال، وسلفنا الصالح رجال وعلماء عصرنا رجال ونساء مبدعون يأخذون من الماضي بمقدار ما يلهمهم الحاضر في عملية سباق ديناميكية، فقد فشل البعض من النخبة في عصرنا لأنهم يخافون معطيات العصر، كما فشل البعض الآخر منهم عندما غربوا بأرواحهم من جذورهم فهم الآن يعيشون الضياع... واجب علمائنا الغوص في أعماق مفاهيم القران لمزيد من الخطط والمشاريع التي تخرج المسلمين من ظلما تهم الحالية إلى نور العلم، كما خرج الناس في الصدر الأول فلا قول فيه لغير العقول النيرة ولا رأي فيه للعقول التي تجد بالمفاهيم الغربية هي المنقذ من الضلال وهذا يستلزم إيجاد بدائل جديدة في هذا المضمار، لم يفطن لها السلف الصالح لأنها لم تعنيه، متحلين بالوعي التاريخي الملتزم و بالواقع المعاش، وأهم من ذلك كله التحلي بالجرأة اللازمة في التشريع في ضوء مفاهيم الحداثة، وما بعد الحداثة...[2] فلم يعد من المجدي البحث عن الفرقة الناجية، فرق الإسلام كلها ناجية بإذن الله فهي تتطهر باستمرار بنور القران، ولان سيوف الأعداء لم تفرق بينها، ولأن (نهاية التاريخ) الفوكايامية[3] و(صدام الحضارات) الصومائيلية[4]، جعلت من الحضارة العربية الإسلامية ومن أهل الحضارة العربية الإسلامية موضع خصومة، لم تفرق بين أي منهم وفي العالم شواهد...

---

١ الغزالي، المنقذ من الضلال، والموصل إلى ذي العزة والجلال، تحقيق د. جميل صياد، د. كامل عياد، بيروت، دار الأندلس، ط٩، ١٩٨٠، ص٨١.

٢ براد بري وما كفارين جيمس، الحداثة، ترجمة مؤيد حسن فوزي، بغداد، دار المأمون، ١٩٩٠، ج٢، ص٦.

٣ فوكاياما، منظر أمريكي من أصل ياباني معاصر.

٤ صومائيل هانتكتون، منظر أمريكي من أصل يهودي معاصر.

لم يعد ((ماء الكر))[1] ماء يطهر من اليورانيوم المنضب، ولم يعد الشبر والفرسخ والذراع تقاس بها مديات الصواريخ العابرة للقارات ولم يعد الإردب والجريب والرطل والرستاق والزق والصاع والقفيز والقنطار، مقاييس عصريه، ولم يعد... ولم يعد والكلام طويل هنا[2]... ما زالت كتبنا مشغولة بألفاظها وكأنا لما نزل في القرن الرابع الهجري...

إن علومنا وعلى الخصوص العلوم الدينية منها، بها حاجة إلى التطوير عن طريق نقد الذات من أجل بنائها داخلياً وتحليل أشكالها خارجياً، يمكن بعد ذلك من تحديد غايات جديدة لها...[3]

إن من مهام عالم الأصول اليوم هو التخلص من الشرك الذي دفعنا إليه دفعاً وذلك بالنظر إلى العقل وأحكامه، على وفق منظور علمي خالص يميز بين الفكر العلمي الخالص والفكر الأوربي المعاصر، لا لرفضه فهو فكر علمي متميز نفع أهله، بل لرفض السم المداف بالعسل منه، وإعطاء الأولوية للقيم العملية، مثلما كان علم الأصول عند سلفنا الصالح، فقد كان علم الأصول العلم المبدع المتميز الذي استطاع أن يحكم استعمال العقل ويلتزم بالمسائل الحضارية ويسحب مشاكل الناس اليومية لتكون قريبة من نور القران، وهو ما نرجوه من هذا العلم

---

١ ماء الكر: هو الماء المحفوظ في إناء أو حوض بمقدار معين اتفق الفقهاء على انه يجزي المطهر به من النجاسة.

٢ قدامة بن جعفر، أبو الفرج بن قدامة بن زياد الكاتب البغدادي، (ت ٣٢٨-٩٤٨م)، كتاب الخراج وصناعة الكتاب، تحقيق الدكتور محمد حسين الزبيدي، بغداد، دار الرشيد، ١٩٨١.

٣ دراستنا، شك الغزالي كيف عالجه الدارسون المعاصرون، المؤتمر الفلسفي الثالث، بغداد، ، آذار، ٢٠٠٢.

في عصرنا الحالي الذي غدا تفكير النخبة فيه يتطلع إلى ما بعد الحداثة، والحداثة اليوم كما هو واضح مسألة حضارية ومسالة جمالية في آن معاً[1].

بعض علوم السلف الصالح كانت تصح في عهد علمائها، فخدمت الأمة بالقدر الذي اجتهد بها علماء ذلك العصر، ولكن بعضها قد لا ينفع في هذا الزمان... الذي ينفع هو إعادة صياغة هذه العلوم طبقاً لعلوم العصر، وعلى وفق قدرات الإنسان وطاقاته في عصر الفضاء... لقد كانت السيوف والرماح والنبال والأقواس وعدة الخيل ونحوها من معدات القوة، وأن تكون على أحسن حال... أما اليوم فالأمر ليس كذلك....

قد نذر جابر بن حيان نفسه لتأتى علوم الكيمياء متطورة تخدم البشرية... أما علوم تفسير القرآن فأن الناس في أشد الحاجة إلى تفسير نفس اجتماعي يطور تفسير المنار ويضيف عليه بما استجد من نظريات العصر ولنجعل من تفسيرات معاصرة أخرى مسألة تضيف للامة ما تستحق في هذه الحياة ولتقف شامخة إلى جانب المتطورين لا عيالاً عليهم...

الأصل الثاني من أصول الأدلة

السنة النبوية المطهرة

((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّه وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ[2] وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا[3].

---

١ براد بري وجمس، المرجع السابق، ص٧

٢ سورة النساء، آية ٨٠.

٣ سورة الحشر، آية ٧.

مَنْ يُطِعْ الرَّسُول فقدْ أطاع اللّه[1] فَلا وربِّك لا يُؤْمنُون حتّى يُحكّمُوك فيما شَجر بيْنَهُمْ ثُمّ لا يَجدُوا في أنفُسهِمْ حَرجا ممّا قضيْت ويُسلّمُوا تسْليما[2] لقدْ كان لكُمْ في رسُول الله أُسْوةٌ حسنَةٌ[3] وما كَان لمُؤْمنٍ ولا مُؤْمنَة إذا قضى الله ورسُولُهُ أمْرا أنْ يكُون لَهُمْ الْخيَرةُ منْ أمْرهمْ[4] وأنزلْنَا إلَيْكَ الذِّكْر لتُبَيّن للنّاس ما نُزّلَ إلَيْهمْ ولَعَلّهُمْ يتَفَكّرُونَ[5] فإنْ تَنَازعْتُمْ في شَيْء فَرُدُّوهُ إلى الله وَالرّسُول إنْ كُنتُمْ تُؤْمنُون باللّه وَالْيَوْمِ الآخر[6] لَقَدْ مَنّ الله عَلَى الْمُؤْمنين إذْ بعثَ فيهمْ رسُولا منْ أنْفُسهمْ يتْلُوا عَلَيْهمْ آيَاته وَيُزَكّيهمْ وَيُعَلّمُهُمْ الْكتَابَ وَالْحكْمَةَ وإنْ كَانُوا منْ قَبْلُ لَفي ضَلال مُبين[7] مُحَمّدٌ رَسُولُ الله وَالّذين مَعَهُ أشدّاءُ عَلَى الْكُفّار رُحماءُ بيْنَهُمْ[8] (صدق الله العظيم)

سنته وحديثه وقوله وفعله (صلى الله عليه وآله وسلم)، الأصل الثاني في التشريع، المفصلة لمجمل القران الكريم المفسرة لما أبهم عليهم، هي وحي رباني لأن أمامها ((وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى إنْ هُوَ إلا وَحْيٌ يُوحَى علّمهُ شَديدُ الْقُوى[9]))... فما كان باللفظ والمعنى فهو القرآن المجيد المعجزة، تميز في أسلوب فريد في اللغة مع انه جاء على وفق النظام العام للغة العربية وتطبيقاً لقواعدها ومناهجها في التعبير والذوق العربيين... أما السنة والحديث فهما ((قول أو فعل أو تقرير

---

١ سورة النساء، آية ٨.

٢ سورة النساء، آية ٦٥.

٣ سورة الأحزاب، آية ٢١.

٤ سورة الأحزاب، آية ٣٦.

٥ سورة النحل، آية ٤٤.

٦ سورة النساء، آية ٥٩.

٧ سورة آل عمران، آية ١٤٦.

٨ سورة، الفتح، آية ٢٩.

٩ سورة، النجم، آية ٤-٦.

obeikandl.com

الرسول الكريم)) (صلى الله عليه وآله وسلم) بالمعنى دون اللفظ، وحي من الله تعالى...

السنة النبوية المطهرة والحديث النبوي الشريف لم يدونا في عصر صدر الرسالة كما هو القرآن، وإن دونت بعض المدونات هنا وهناك بصحائف تقات من الصحابة إلا أن الأغلب الأعم ظل محفوظاً في الصدور... لا لقلة الكاتبين وممن تمرس في هذه الصناعة، بل لأن الحفظ والاستظهار كان من سمات العصر، وهما ملكة قد تفرد بها العرب ويفتخر بامتلاكهما، كما يفتخر كاتب الحاسوب الفنان بعمله في أيامنا هذه...

نقلت عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أحاديث كثيرة منعت كتابة الحديث والسنة منها: ما أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه)[1]، ((لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القران فليمحه، وحدثوا عني ولا حرج...))[2] وفي هذا المعنى جاء في صحيح البخاري عن سعيد بن عمره: أنه سمع ابن عمر (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قال: ((أنا أمة أميه لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا، وهكذا)) يعني مرة تسعة وعشرين

---

1 من الصحابة البررة، ومن السبعة الرواة المتقدمين ممن بايعوا الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) على أن لا يخذلوه...

2 الإمام مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابوري (٢٦١، ٨٧٤م) الصحيح، ٥ مجلدات، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، (مصر ١٩٥٥، ٨، ٢٢٩)، (كتاب الزهد والرقاق -باب التثبت في الحديث)...

والإمام مسلم (من المحدثين العلماء بالحديث والفقه) على رأي ابن النديم في الفهرست ص٢٨٦، عربي من قبيلة (قشير) وهي قبيلة عربية معروفة... كتاب (صحيح مسلم) وقبله (صحيح البخاري) قمتان من قمم الحديث النبوي الشريف، تلقفتهما الأمة بالقبول... درس صحيح مسلم وصححه كثيرون وكتب عنه علماء أفذاذ وهو جدير...

ومره ثلاثين،[1] هذا الحديث الشريف جاء في كتاب الصوم في الصحيحين معـا،[2] يتحدث عن مثوبة رؤية هلال شهر رمضان، وأزعم أنه ينصرف إلى كون الأمة العربية، ليس لها الباع الطويل في علوم الهيئة والفلك، ولا يكتبـون علومهـا ولا يحسبون مسارات الأفلاك والأجرام السماوية ذلك العصر، وإن استشهد به البعض في النهي عن كتابة الحديث فهو من باب تحميل الشيء أكثر مما يجب ...

وفي مقابل هذا جاءت أحاديث عنه (صلى الله عليه وآلـه وسـلم) تسـمح بالكتابة منها حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: إن الرسول (صـلى الله عليـه وآله وسلم) أومأ إلى فيه وقال ((اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حـق))[3] وأحاديث أخرى غيره منها حديث أبي شاه اليماني ((اكتبوا لأبي فلان...))[4] وقول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في مرضه الذي توفي فيه ((آتوني بكتاب اكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده))[5]، وغير ذلك من أحاديث مشابهة...

---

1 الإمام البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بـن إبـراهيم الجعفـي، (ت ٨٦٩/٢٥٦م) (صحيح البخاري) نشرت شركة الطباعة المنيرة، وطبعته دار عالم الكتب (بيـروت بـدون تاريخ)ج٣، ص٦٤ (كتاب الصوم) باب قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لا نكتب ولا نحسب، ...الإمام البخاري (من علماء المحدثين الثقات) وله من الكتب كتاب الصحيح وكتاب الأسماء والكنى، وكتاب الآحاد وكتاب المفرد وكتاب التاريخ وكتاب الطبقات كما جاء فـي فهرست ابن النديم ص٢٨٦، من المقالة السادسة، لا يجارى في حفظه للحـديث وضـبطه، روى وكتب عن أكثر من ألف شيخ، وحفظ مائة ألف حديث صحيح، كتابه أصح الكتب بعد القرآن المجيد سمعه من أكثر من سبعين ألفا، وظل يجمعه ست عشرة سنه، سيرته مبسوطة في كتب الرجال والسير والطبقات.

٢ الإمام مسلم، الصحيح، ص٧٦١، (كتاب الصوم)، باب وجـوب صـوم رمضـان لرؤيـة الهلال...

٣ الإمام البخاري، الصحيح، ج١، ص٣٧

٤ المصدر السابق، ج١، ص٣٨

٥ المصدر السابق، ج١، ص٣٩

الحديث النبوي الشريف لم يمنع من كتابته بالصيغة الباتة القاطعة المطلقة، ولكن في صدر الرسالة وخشية انشغال المسلمين بالحديث الشريف دون القـران الكريم، وهم ما يزالون في أول الطريق إلى الإسلام، غيـر إن مـن المؤكـد أن الحديث الشريف والسنة المطهرة قيدتا بالكتابة من قبل الصحابة ذوي الاختصاص والخبرة. بقيت أصولهم بعدهم اتخذها أئمة الصحاح أساساً لما جمعوا... ولم يكـن المنع ناجماً عن الخوف من اختلاط السنة المطهرة بالقران الكـريم، أو انـدماج بعضهما بالبعض الآخر لأن هذا قد يبدو تشكيكاً في إعجاز القران الكريم ذاتـه، وهو ما لا يخطر ببال الصحابة الأولين (رضي الله عنهم) مطلقاً، لأن لغة القران تختلف اختلافاً كبيراً عن كلام البشر، فلا يمكن أن يَخلط بالسنة النبوية وهي كلام الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

إن تعليل أسباب منع كتابة الحديث في صدر الإسلام بالخوف من أن تتخـذ دينا عاما كما القرآن، إن هو إلا تفريق بين القرآن والسنة من الصعب هضمه، إذ أن سنة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لا تخالف كتاب الله بحـال، ولأن القرآن الكريم جاء بكليات الأحكام، وأصول الشريعة، والسنة الشريفة بيان لهـذه الأحكام وشرح لتلك الأصول من غير المقبول أن تبقى في صدور الرجال وتحت رحمة الذاكرة مهما تميزت ذاكرة العربي المرهفة الأمينة، نعم السنة دون القـران في التدوين ولكن لم يقيد تدوينها في ضوء البديهيات الآتية:-

١- اهتم القران الكريم بالتدوين والحث على القراءة والكتابة بشكل يلفت النظر حتى أنه سبحانه أقسم بها فقال ((ن والْقَلَمِ وما يَسْطُرُونَ[١]))، وأمر تعـالى عباده أن يكتبوا في حقوق العباد ويستشهدوا عليها ((يا أَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُمْ بِدَيْنٍ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَـأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلْ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّـه

---

[١] سورة القلم، آية ١.

رِبَهُ))، ((ولا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صغيرا أو كبيرا إلى أجله ذلكُمْ أقسطُ عند اللَّه وأَقْومُ للشَّهادة وأدنَى ألا تَرْتَابُوا إلا أَنْ تَكُون تجارة حاضرة تُديرُونها بيْنَكُمْ فَلَيْسَ عليْكُمْ جُنَاحٌ أَلا تَكْتُبُوها وأَشْهِدُوا إِذَا تَبايعْتُمْ ولا يُضارَ كاتبٌ ولا شَهِيدٌ))[2]...

نعم ذلك مهم في الحسابات اليوم من تجارة الدنيا فكيف في تجارة اليوم الآخر؟

هذا وقد أحصينا موارد ذكر مستلزمات التدوين وأدوات الكتابة فكانت في أكثر من ٤٦٠ موردا وهو ما سوف نشرحه لاحقا...

٢- الأحاديث الصحاح التي تشير إلى أن الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) قد أمر بعضا من أصحابه أن يكتبوا عنه ما يقوله في الرضى والغضب لأنه صلوات الله عليه لا يقول فيهما إلا حقا، كما دعا ببعضهم فقال: اللهم علمهم الكتاب، وقال (صلى الله عليه وآله وسلم) قيدوا العلم بالكتابه، وفي الصحاح والسنن في أبواب تقيد العلم وبيان فضله زيادة لمستزيد... الأمر الذي تمكنوا معه من تأويل الروايات المختلفة والجمع بينها...

٣- جمع محمد حميد الله الحيدرابادي في كتابه ((مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والخلافة الراشدة)) أكثر من ٣٧٢ ونيفة منها ٢٧٨ ونيفة كتبت ودونت زمن الرسول الكريم ٨٤ وثيقة كتبت زمن الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم) فيها من السنن والأحكام ما تنظم به أمور الدولة الإسلامية انذاك، وتلك ما صحت لدى الحيدرابادي، ولعل هناك الكثير من

---

١ سورة البقرة، من آية ٢٨٢.

٢ سورة البقرة، من آية ٢٨٢.

الوثائق غير السياسية... ويقال: إن في ديوان الخلافة، كانت نسخ العهود والمواثيق ملء صندوق، ولكنها احترقت حين احترق الديوان يوم الجماجم سنة ٨٢، والذي بقي بعد ذلك قضت عليه صروف الزمن... هو هكذا تراثنا لم يصل منه إلا أقل القليل، فقد كتب علينا نحن أحفاده، أن نعيد تجارب أجدادنا، بعد أن فقدنا خط البداية...[١]

٤- وطبيعة الأشياء ونقصد بها مجموع الظروف والخصائص الموضوعية والذاتية التي عاشها النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، واختص بها، مما يستلزم الامتناع عن قبول الرأي القائل بمنع الرسول وصحبه من تدوين السنة النبوية في عصر الإسلام منعا مطلقا، وهي أمور:

الأهمية الخاصة التي يتمتع بها الحديث الشريف والسنة المطهرة بجملة اعتبارات منها كونه الأصل الثاني في استنباط الأحكام والمفصل لكلياتها، وكونه يمثل أروع الصور البلاغية بعد القران الكريم، والعربي ذواقة فريد من نوعه في هذا الباب، وكذلك لوجوب الامتثال لأوامر الرسول ونواهيه، وغير ذلك مما لا يسعه هذا الإيجاز[٢].

أدراك الرسول الكريم والصفوة من صحبه البررة للرسالة وتراثها الخالد من الحديث والسنة... إدراك الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) لمدى ما تتعرض له سنته وهي في صدور الرجال وافراد في معارك التحرير.

توفر أدوات الكتابة والتدوين ووجود العدد الكبير ممن يعرف القراءة والكتابة ومن المسلمين من اتخذها حرفة، منهم من كان ينقل التوراة إلى العربية،

---

١ فصلت هذا الأمر كتب التاريخ الرئيسة.

٢ فصلنا هذه الأدلة وغيرها في مقال عنوانه (السنة النبوية وأثرها في التشريع)، نشرته مجلة الرسالة الإسلامية، يصدرها ديوان الأوقاف ببغداد بعددها رقم٤، السنة الأولى، جمادى الثاني، ١٣٨٨/أيلول /١٩٦٨م، ص٦٩ فما بعد.

والكتابة لا تكلف صاحبها شيء كثير لا سيما وهو يدرك عظم المثوبة عند الله جزاء لعمله...

ومجمل القول: أن قول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) حجة لدلالة المعجزة على صدقه، ولأمر الله تعالى باتباعه... وقول رسول الله حجة على سامعيه شفاها فأما نحن، فلا يبلغنا قوله إلا على لسان المخبرين. أما على سبيل التواتر وأما بطريق الآحاد...[1] وهو الأمر الذي فصله علم قائم بذاته وهو (علم دراية الحديث).

obeikandl.com

---

١ الغزالي، المستصفي من علم الأصول، ج١، ص١٢٥، وتفصيلات مهمة فيما بعد.

الأصل الثالث من أصول الأدلة

الإجماع:

والإجماع في اللغة، من أجمع الأمر، وهو العزم على شيء والتصميم عليه، والأمر مجمع[1] قال تعالى ((فاجمعوا أمركم وشركاءكم))[2]، أما الإجماع الدليل في استنباط الأحكام الشرعية فهو اتفاق جميع مجتهدي الأمة في عصر من العصور على حكم واقعة من الوقائع، واستنباط حكمها الشرعي لقول الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم): ((لا تجتمع أمتي على الضلالة))[3]، وقد اختلف مفهوم الإجماع لدى المجتهدين، فمنهم من قال: إجماع أهل المدينة، ومنهم من قال إجماع ((أهل الحرمين)) ومنهم من قال: إجماع أهل المصرين ((بصرة والكوفة)) وغير ذلك من الأحكام مما فصلتها كتب الأصول واختلفت فيها رفضا وقبولاً[4]...

وقد أسهب السلف الصالح في إثبات حجية هذا الأصل من أصول الاستنباط بنص من القران أو بحكم من السنة الشريفة المتواترة أو بالعقل وأحكامه... .

قال الله تعالى في محكم كتابه الكريم ((وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وسطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ))[5]، ((كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّه))[6]، ((ومِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحقِّ وبِه

---

١ ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الخزاجي، (ت ٧١١ /٣١١) لسان العرب، بيروت، دار الفكر، ١٩٥٥ .

٢ سورة يونس، ١٠ آية ٧١ .

٣ الغزالي، المستصفى... ج١، ص٢٠٦.

٤ المظفر، المرجع السابق، ج١، ص١٧١.

٥ سورة البقرة، آية ١٤٣.

٦ سورة آل عمران، آية ١١٠.

يَعْدِلُونَ))،[1] ((وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا فَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً))، [2]((وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ))،[3] ((فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ))،[4] ((وَمَنْ يُشَاقِقْ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا))،[5]

هذه حجية الأصل الثالث من أصول الاستنباط كما توحي بها أي الذكر الحكيم أما السنة النبوية المطهرة، فقد تظاهرت الرواية عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، بألفاظ مختلفة مع اتفاق بالمعنى في عصمة أهل هذه الأمة من الخطأ، ويقول الإمام الغزالي: إن أمة الإسلام قد ((اشتهرت على لسان المرموقين والثقات من الصحابة، كعمر وابن مسعود وأبي سعيد الخدري وأنس بن مالك وابن عمر وأبي هريرة وحذيفة بن اليمان وغيرهم ممن يطول ذكره، (رضي الله عنهم) يرون الروايات التي تثبت حجية هذا الدليل))، والكثير منها يرد على منكري هذا الدليل منها قول الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) ((لا تجتمع أمتي على الضلالة))، ((ولم يكن الله ليجمع أمتي على الضلالة))، ((وسألت الله تعالى أن لا يجمع أمتي على الضلالة فأعطانيها))، ((ومن سره أن يسكن بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة فإن دعوتهم تحيط من ورائهم وان الشيطان مع الواحد وهو مع الاثنين أبعد)). وقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) ((يد الله مع

---

١ سورة الأعراف، آية ١٨١.

٢ سورة آل عمران، آية ١٠٣.

٣ سورة الشورى، آية ١٠.

٤ سورة النساء، آية ٥٩.

5 سورة النساء، آية ١١٥

الجماعة ولا يبالي الله بشذوذ من شذ ولا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم)) وروي ((لا يضرهم خلاف من خالفهم إلا ما أصابهم من لأواء، ومن خرج عن الجماعة، أو فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه))، ((ومن فارق الجماعة ومات فميتته جاهلية)) وهذه الأحاديث النبوية الشريفة التي نقلها الإمام الغزالي في كتابه ((المستصفى من علوم الأصول)) وقال عنها إنها لم ينكرها أحد وهي على وفق أحكام العقل، ((بل هي مقبولة من موافقي الأمة ومخالفيها ولم تزل الأمة تحتج بها في أصول الدين وفروعه))[1]، ولكن الباحث وعلى وفق ما جاء بالقرص الليزري لكتب الحديث النبوي الشريف التسعة وهي ((البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، أبو داود، وابن ماجة، وأحمد بن حنبل، ومالك بن أنس، الدارمي)) لم يعثر على أساس لهذه الأحاديث مجتمعة على حد فهمه وعلمه...

قال الإمام مالك: ((الحجة في الإجماع أهل المدينة فقط، وقال قوم: المعتبر في إجماع أهل الحرمين مكة والمدينة، والمصرين الكوفة والبصرة...))[2] والإمام الغزالي لم يجد هذه الأقوال حجة في كل زمان ومكان وهو أمر مفروغ من صحته...[3]

واختلف الأصوليون في أنه هل يشترط أن يبلغ أهل الإجماع عدد التواتر وهذا يستدعي إعدادا بالضرورة حتى يسمى إجماعاً فهو، إذن لا يحققه الاثنان أو الثلاثة... وقد ذهب الإمام داود ومن شايعه من أهل الظاهر إلى أنه لا حجة في

---

1 الغزالي، المستصفى في علوم الدين، ج١، ص٢٠٦.

2 المصدر السابق، ج١، ص٢١٩-٢٢٠.

٣ المصدر السابق، ج١، ص٢٢٠.

إجماع من بعد زمن الصحابة، وقد وجد الغزالي فساد هذا الرأي لأن أصول الاستنباط الثلاثة أعني الكتاب والسنة والعقل لا تفرق بين عصر وعصر.[1]

الإجماع وهو الأصل الثالث من أصول أدلة الاستنباط في كل وقت، ومن هنا كانت له دلالاته المشرقة في تراثنا العربي الإسلامي فهو على ما يزعم الباحث: واحد من أسس الديمقراطية العربية الإسلامية وأصولها واستنباط الأحكام الشرعية على وفق ما يمليه العصر، وتساس به الدولة، وتوحد فيه الجماعة ((ومعرفة ما لله لله وما لقيصر لقيصر))[2]، هذه الأصول كانت قد احتوتها حلقات الدرس ومتابعة العلماء في مساجد الله وكذلك مجالس الخلفاء وبيوت الوزراء وجدل المتناظرين، ومضارب العشيرة على متون (الوبر والمدر)، في بعض أحايينه، وغير تلك من الشرائع وأساليب الديمقراطية، كانت في حينها ومن بعد حينها من مستلزمات عملية البناء الحضاري التي شكلت ثوابت نسبية في عالم متغير تموج أحداثه [illegible]ة، ثوابت غير جامدة ديناميكية تسعى نحو التكامل والاندماج في المعاصرة وتمضي نحو التأثير في صنع الحضارة باستمرار لأنها المرجع الرحب في الوعي الحضاري.

ومرت هذه الأساليب في الإجماع والشورى والديمقراطية، كما مرت أخوات لها في حضارات الأمم السابقة سواء منها في الشرق أو في الغرب، بمد وجزر وليس بعيدا عنا قول الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ((كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا)) وديمقراطية الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في الجمل وصفين والنهروان، وما كانت في مجالس الخليفة

---

١ الغزالي، المصدر السابق، ج١، ص٢٢٣-٢٣٦.

٢ فصلنا هذا الأمر بدراستنا، (الخطاب النقدي العربي وإشكالية الديمقراطية)، ضمن كتاب ضم بحوث الندوة الفكرية للجمعية الفلسفية العربية في ٢٢/ شباط/٢٠٠٠، منشورات الجامعة الأردنية، عمان ٢٠٠٠.

الأموي العادل عمر بن عبد العزيز، ولا يعني هذا إن تلك الممارسات الشورية بمفاهيمها الديمقراطية التي وسعها ذلك العصر، كانت خالية مما يعكر عليها صفوها، هناك أقلها ما كان من مسألة (خلق القران)، وما كان مع الخليفة العباسي المتوكل في خصوم أهل السلف ونحوها، ومع هذا يبقى تراثنا منارا سالكا للجديد بما في هذه الحياة...[1]

ولكن البعض من رواد النهضة والمفكرين الذين حملوا لواء المشروع النهضوي العربي أوائل هذا القرن، أنكروا هذه المرجعية التراثية، وأغفلوا هذه الخصوصية للحضارة العربية الإسلامية وكان معظم هؤلاء متسرعين في محاولاتهم نسف التراث العربي الإسلامي، لا لشيء إلا لانبهارهم بعظمة التكنولوجيا التي لا تقاوم وعنفوان المد الحضاري الأوربي، إن هذا وإن كان صعب المقاومة لأول وهلة، ولكن الواقع الذي عليه الناس خضب بيئتها بلونه وهو في حقيقته يمثل وجدان الإنسان العربي المسلم. التراث للإنسان العربي المسلم هو أصله وهو فصله وهو وجدانه وهو تاريخه وهو أسلوب حياته وإنكار هذه المؤشرات يعني إغفال خصوصية الإنسان العربي.

إن الديمقراطية الغربية بصفة خاصة والمرجعية الأوربية بشكل عام التي ينبهر بها الكثيرون من رواد النهضة وحملة المشروع النهضوي. أدى إلى حشر نهضتنا وديمقراطيتنا في نموذج النهضة الأوربية مما يعني انسلاخاً عن الواقع الفكري والاجتماعي للإنسان في هذه المنطقة. إن البيئة العربية الإسلامية والحياة في ربوعنا هي غير البيئة التي عاش بها أهل ذلك النموذج الأوربي، وقد لا تصلح تلك المقاييس لهذا الكيان، ولكن البعض من النخبة لدينا أصر على تطبيق

---

١ دراستنا، الخطاب النقدي العربي وإشكالية الوعي التاريخي، ضمن بحوث مركز احياء التراث العربي، جامعة بغداد، أيلول/١٩٩٩.

ذلك النموذج وبانبهار تام وربما بنوع من التقديس... إنه نوع من قهر الذات في حضرة الآخر...

قولنا هذا لا يعني رفض هذا التيار فهو جارف ولا قوة لنا في الوقت الحاضر لرفضه، ولكن من الخير لمشروعنا النهضوي أن يرفض النموذج الغربي الإمبريالي بكل ما لدينا من فكر وتاريخ وجذر تراثي، ونتضامن مع الحضارة الأوربية في أمورها الإنسانية ولا نرفض الغرب بما هو غرب ولا نرفض معطيات العصر والتكنولوجيا بانفعال كما هو عند بعض النخبة الأخرى من مفكرينا ومن دون تمييز عقلي بين عدوانية الإمبريالية وبين أدوات الغرب المعرفية التي حققت له التطور الحضاري.[1]

الأصل الرابع من أصول الاستدلال

دليل الرأي والقياس، ودليل العقل

اختلفت المدارس الفقهية في الأصل الرابع من أصول استنباط الأحكام الشرعية، فمن المدارس من جعلته (دليل الرأي والقياس) ومنها من جعلته(دليل العقل)، ولكن لكل من هذه المدارس طروحاته ومناقشاته: -

أ- دليل الرأي والقياس

الرأي:

وهو واحد من أدلة الاستنباط ووسيلة من وسائل الكشف عن الحكم الشرعي، وهو في الأعم الأغلب اخذ الحكم من علل النصوص لا من دلالتها اللفظية، وقد عظم شان (دليل الرأي) وكثر القائلون به ثم صار فيما بعد يعرف

---

١ دراستنا، لماذا فلسفة التاريخ، دراسة مستقبلية، بيت الحكمة، المؤتمر الفلسفي الثاني عشر ٢٠٠١، مجلة الاتجاه، العدد الثاني عشر تشرين الأول، بيروت، ٢٠٠١.

obeikandl.com

بالقياس أو غلب هذا النوع من فروعه على مفهومه... وعد الإمام أبو حنيفة النعمان بن ثابت حامل لواء مدرسة الرأي والقياس في زمانه بلا منازع، ثم أخذ به الفقهاء، وكان الشافعي من أهم الذين وضعوا للقياس شروطا مما تجعله أداة صالحة أمينة لاستنباط الأحكام الشرعية[1].

القياس:

لغة قياس الشيء بالشيء، قدره على مثاله، وفي الاصطلاح إلحاق مسالة لا نص على حكمها بمسالة ورد النص بحكمها في الحكم الذي ورد به النص لتساوي المسالتين في علة الحكم، فهذا الإلحاق يسمى قياسا، والمسالة المنصوص على حكمها تسمى المقيس عليه أو الأصل، والحكم الذي ورد به النص في المقيس عليه يسمى حكم الأصل، والمسالة التي لم يرد نص بحكمها ويراد إلحاقها بالمقيس عليه تسمى الفرع أو المقيس، والعلة التي من أجلها شرع الحكم تسمى العلة[2]... يقول الخطيب البغدادي: إن الإمام أبا حنيفة كان إماماً (بالقياس)[3]... و(القياس) في مفهومه العام شعبة من (الرأي)، الذي هو واحد من أدلة استنباط الأدلة الشرعية من أدلتها التفصيلية، وكان الأخذ به مقيداً يلجئون إليه عند الضرورة، وحين يستعصي عليهم أمر أو تنزل في ساحتهم حادثة لم يألفوها، ولم يجدوا لها نصاً في الكتاب والسنة، استعانوا به في أصول محدودة وقواعد مضبوطة وقد اختلفوا في مقدار الأخذ (بالقياس) كماً وكيفاً... ((في صدر الإسلام ظلت النصوص القرآنية وحدها ولفترة هي المناط للمرجعية المعرفية والسلوكية في التطبيق والتنظير، وكان القرآن هو المرجع الأساس في الوعي الحضاري، ثم كانت في ضوئه وتفسيره السنة النبوية الشريفة، ثم بعد أن توسع الأفق، جاءت

---

١ على سبيل المثال لا الحصر، الشافعي، الرسالة، ص٣٥٠ فما بعد

٢ الشافعي، الرسالة، ص٤٤٤ فما بعد

٣ تاريخ بغداد، ج١٣، ص٣٤٦.

مرجعية الأصول وأدلة الاستنباط ما بعد القرآن والسنة، وهي الإجماع والعقل والرأي والقياس، والاستصحاب، والاستحسان، ودليل الخطاب، والتصويب، وشرع ما قبلنا، ونحوها من ألفاظ تختلف باختلاف الأفكار التي اندمجت وتصاهرت وتعايشت في (مدرسة بغداد الفلسفية) يراد بها تيسير العمل ومواكبة مسيرة الحضارة في عالم متغير تموج أحداثه بالحركة))[1]...

ويبدو أن الإمام النعمان بن ثابت قد توسع في الأخذ (بالقياس) لقلة ما صح عنده من نصوص معتبرة، فكان لا يحجم عن (القياس) إلا إذا رآه قبيحاً، فأنه حينئذ يرجع إلى دليل الاستحسان، أو الرجوع لأثر يعتمده، أو لأصل عام يجده مناسباً، أو إجماع صحيح، أو ضرورة ملجئة، ولأن أفكار أبي حنيفة هذه كانت في الكوفة ومن ثم في بغداد وهما ضاجتان بالحركة الفكرية، أتهم أبو حنيفة وأصحابه بالمغالاة في الاعتماد على (القياس)، فأبطله الظاهري وابن حزم[2]... ويروي الخطيب البغدادي بهذا الخصوص دعابة ينقلها عن علي بن عاصم يقول: دخلت على أبي حنيفة النعمان وعنده (حجام) يأخذ من شعره، فقال أبو حنيفة للحجام: تتبع مواضع البياض، فقال الحجام: لا تزد. فقال أبو حنيفة: لم؟ قال: لأنه يكثر، فقال أبو حنيفة: تتبع مواضع السواد لعله يكثر[3]، في إشارة إلى عدم الدقة في أحكام (القياس) في كل وقت...

وينقل ابن خلكان عن ابن شبرمة قوله: ((دخلت أنا وأبو حنيفة على جعفر بن محمد فسلمت عليه، وكنت صديقاً، فقلت: هذا أبو حنيفة النعمان فقيه عالم من العراق، فقال جعفر: لعله الذي يقيس الدين برأيه؟. ثم أقبل وسأل أبا حنيفة عدة

---

١ دراستنا الخطاب النقدي العربي وإشكالية الديمقراطية، بحث مقدم للمؤتمر الفلسفي الثاني للجمعية الفلسفية العربية، عمان، شباط/٢٠٠٠.

٢ الشهرستاني، الملل والاهواء والنحل، ج٤، ص١٤.

٣ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج١٣، ص ٤٣٦.

أسئلة نذكر منها (أيهما اعظم عند الله، قتل النفس التي حرم الله، أم الزنا؟، قال أبو حنيفة: لا بل قتل النفس، قال جعفر: إن الله قد رضي وقبل في قتل النفس الشاهدين ولم يقبل بالزنا إلا أربعة، فكيف يقوم لك قياس... ثم سأله سؤالا، قال جعفر: أيهما أعظم عند الله: الصوم أم الصلاة؟، قال أبو حنيفة،: الصلاة، قال جعفر: فما بال المرأة إذا حاضت تقضي الصوم ولا تقضي الصلاة؟ اتق الله ولا تقس))[1]... وفي (مدرسة بغداد الفلسفية) نجد الكثير من هذا النقاش بين القائلين بالقياس وبين خصومه، كان له أجمل الأثر في إذكاء الحوار البناء في أروقة العلماء والفلاسفة في تلك المدرسة، الأمر الذي دفع الكثيرين من أصحاب أبي حنيفة النعمان إلى الحوار الفلسفي والجدل في المسائل الفلسفية والأخذ في بعض الأحيان بمقولات المعتزلة، بعد أن استهوتهم الطروحات العقلية[2].

دليل العقل:

ويستعان به (إذا فقدت الأدلة الثلاثة -القران والسنة والإجماع فالمعتمد عند المحققين- التمسك بدليل العقل)[3] وعليه فإن ((مستند الأحكام... (عندهم)، الكتاب، والسنة، والإجماع ودليل العقل)[4]، وقد فسر هذا الدليل بدقة الشيخ محمد رضا المظفر (ت ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م) فقال: هو كل حكم للعقل يوجب القطع بالحكم الشرعي، أو كل قضية عقلية، يتوصل بها العلم العقلي بالحكم الشرعي))[5]، وهذا دليل لا يخلو من أمرين، أما يتفرد بالنتيجة ويستقل بإفادة الحكم الشرعي ويعرف هذا الدليل (المستقلات العقلية) ومصدره (الحسن والقبح العقلانيان) أو يستعين

---

١ وفيات الأعيان، ج١، ص٤٧٢.

٢ انظر سيد أمير علي، موجز تاريخ العرب، ص٣٧٥.

٣ ابن إدريس، كتاب الأبرار...، ص٤.

٤ المحقق الحلي، ص٥.

٥ أصول الفقه، ج٣، ص١٢٥.

بالحكم العقلي من اجل الوصول إلى النتيجة وإفادة الحكم بقضية شرعية ويعرف بـ(الدليل العقلي غير المستقل) أو (غير المستقلات العقلية)[1]، وقد اتفقت المدارس الفقهية الإسلامية على إن أدلة الاستنباط للإحكام الشرعية الفرعية أربعة، اختلفوا في الدليل الرابع منها دون بقية الأدلة: (دليل العقل) أم (دليل القياس)، وفي ذلك مباحث كثيرة منذ فجر بغداد حتى اليوم.

ولا تحسبن أن هذا الخلاف نقمة ((لأن اختلاف الرأي لا يفسد للود قضية)) كما قال الشاعر أحمد شوقي... وهذا الاختلاف في الفتوى والعمل لا يعرض وحدة الأمة للتصدع ولا يؤدي بها إلى التفكك... الذي يصدّع الآمة ويعرض وحدتها استغلال هذا الخلاف العلمي وتضخيم صورته السلبية أو افتعاله أحياناً، ثم المتاجرة به بين الناس... لا تخشى الاختلاف في الرأي العلمي وإلا ما ازدهرت العلوم ونضجت من دونه...

في (مدرسة بغداد الفلسفية) تناول العلماء من السلف الصالح -وفي بواكيرها على الخصوص - علم الأصول - علم أصول الفقه - بالتعديل والتفصيل وتناولته مسارات متضاربة متقاطعة (أئمة الحديث، الفقهاء، علماء الكلام، المتصوفون، وفرق أخرى)[2]، كل يضيف ويحذف حتى وضعوه في صورة كاملة، وتناولته مجالس العلماء في حلقات الدرس في مساجد الله وكذلك في مجالس الخلفاء، وبيوت الوزراء، وعند الجدل بين المتناظرين حتى أقاموه في صورة بارعة، تلا قفته حواضر الإسلام حاملة لبغداد هذا الجميل. . .

---

١ فصل هذا الأمر وبإسهاب وتمحيص في رسالة أكاديمية نوقشت بتاريخ ١٩٧١/٨/٢٩ في قاعة جامعة الأزهر الشريف ومنح صاحبها الدكتور رشيد محمد عليان شهادة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى وكان عنوانها (العقل عند الشيعة الإمامية) ساعدت جامعة بغداد على طبع الرسالة، (بغداد- ١٩٧٣).

٢ د. حسام الآلوسي، (دراسات...)، المصدر السابق، ص٤٧-٨٥.

يقول علي سامي النشار في كتابه ((نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام))[1]، بعد أن درس هذه النشاطات، ((في هذا المجال أنتجوا تفكيرا منطقيا وكشفوا عن المنهج التجريبي الذي عرفته أوربا بعد ذلك وسارت إلى حضارتها الحديثة)) ووجد النشار إن علم أصول الفقه كان ((منهجاً عاماً إلى علماء أصول الفقه وعلماء أصول الدين واختلط العلمان في العصور المتأخرة اختلاطاً كبيراً بحيث كان علماء أصول الفقه يبدؤون كتبهم بمقدمات كلامية، وعلماء أصول الدين أي المتكلمون يبدؤون كتبهم ببحث في مدارك العقول، وهذا هو في الحقيقة إجراء من المنهج الأصولي المنطقي))[2].

وهناك أدلة فرعية غير ما ذكرنا اختلف في تقيميها والأخذ بها منها: -

دليل الاستحسان:

وهو العدول عن القياس، والرجوع لأثر، أو اصل عام أو إجماع أو ضرورة وهو نوعان: ترجيح قياس خفي على قياس جلي، أو استثناء مسالة جزئية من اصل كلي أو قاعدة عامه وقد اختلف فيه ولكن دليل الاستحسان نال مقاماً رفيعاً عند الأمام مالك بن أنس وهو عنده ((تسعة أعشار العلم))[3]. لأنه كما يبدو ترك العسر إلى اليسر ولذا قيل فيه هو ((ترك القياس والآخذ بما هو أوفق للناس)) وقيل هو ((الآخذ بالسماحة ابتغاء ما فيه الراحة))[4].

---

١ الطبعة الرابعة، (القاهرة١٩٦٦)، ص٩-١٠.

٢ د. علي سامي النشار، المصدر السابق، ص١٠.

٣ د. عبد الكريم زيدان، المدخل لدراسة الشريعة الإسلامية، بغداد ١٩٦٤، ص١٩٨-١٩٩.

٤ المصدر السابق، ص٢٠٠.

obeikandl.com

دليل المصالح المرسلة:

وهي المصالح التي لم يشرع الشارع: حكماً لتحقيقها ولم يقم دليل معين على اعتبارها أو إلغائها أو هذا يعني أن محل واقعة ليس فيها نص ولا إجماع ولا قياس ولا استحسان وفيها مصلحة للناس، أجازوا به للمجتهد أيجاد حكم مناسب لتحقيق هذه المصلحة للناس ومن الأحكام الحاضرة التي يمكن أن نجد لها سندا من المصالح المرسلة شيء كثير من الأحداث الجديدة والوقائع المنظورة[1].

دليل سد الذرائع:

الذرائع هي الوسائل التي تسد وتمنع إذا كانت تفضي إلى الفساد وتجب وتفتح إذا كانت تفضي إلى المصالح ومنها: نهي النبي الكريم عن الاحتكار سداً لذريعة التضييق على الناس لذا كان هذا الدليل مصدراً فقهياً تستقى منه الأحكام الشرعية، وكان الإمام مالك والإمام أحمد من أكثر الأئمة آخذا بهذا المصدر[2].

وقد ذكر الإمام الغزالي عن بعض هذه الأدلة إنها أدلة موهومة لا تصلح لاستنباط الأحكام الشرعية، وقد فصل القول في ذلك...[3]

ومجمل القول:

إن هذه الأدلة والبراهين منا طها العقل الذي هو مناط التكليف وبه تعرف الحجة وفيه يتوضح عمل المكلف ثوابا وعقابا وبهذه الأدلة العقلية يصاغ الاستدلال على الأحكام الفرعية، فهي إذن لا تقرر بها المعارف الدينية فقط، بل تقرر فيها العلوم كل العلوم العقلية من الحسابية والهندسية والطبية والفلسفية

---

١ فصل هذا: د. عبد الكريم زيدان، المدخل لدراسة الشريعة، ص٢٠١-٢٠٣.

٢ المصدر السابق، ص٢٠٤-٢٠٦.

٣ الغزالي، المستصفى من علم الأصول، ج١، ص٢٤٥-٢٦٦.

والفقهية والكلامية... والقرآن والسنة النبوية الشريفة مليء بهذه البراهين العقلية[1].

وهذه العلوم في العصور المتأخرة في مدرسة بغداد الفلسفية أضحت تؤطر بمقدمات فلسفية حتى صارت الفلسفة العربية الإسلامية زاد القوم ومقوم دراساتهم ولكن من وراء ستار لأسباب كثيرة حالت دون ظهوره أو خانت الشجاعة من لديه القدرة ذلك الزمن أن يقول: هذه طروحاتي الفلسفية، فقد كان الفيلسوف يجد في بعض شوارع بغداد وقتذاك من يرى الفلسفة ذلك ((المذنب الغريب)) أو ((اللقيط المنبوذ)) وعلى أحسن الفروض إنها ((بضاعة مستوردة)) أو ((علوم دخيلة)) عمق هذا التوجه فتوى بعض علماء الدين والفقهاء كان منهم ابن الصلاح الشهرزوري وفتواه في تحريم الفلسفة[2]...

هذا و بالرغم من تلك المعوقات فقد أسس أهل بغداد وفي هذه الفترة ((فترة البواكير والنشأة)) لعلوم كثيرة، تفلسفوا لامتهم وللعالم، وقدموا رؤية وأفكارا قادت خطى البشرية قروناً بعدها متطاولة ((فقد كان الرجل الواحد منهم يكتب في علم الكلام بالعمق نفسه الذي يؤسس به لعلم الأصول وبالهمة ذاتها التي يدرس فيها الرياضيات والفلك والنجوم، هذا فضلاً عن الترجمة التي شغف بها القوم شغفاً عظيماً))[3] ولو تأملنا نوع المشكلات التي كانت الفلسفة تعالج إشكالياتها خلال أهم فترات تاريخها وقارناها بالموضوعات الرئيسة للعقائد والشرائع

---

١ الغزالي، القسطاس، ص٨٣، والخضري، أصول الفقه، ص٢٢٨.

٢ د. فؤاد زكريا: الفلسفة والدين في المجتمع العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٧، ص٤٣-٦٧. نص فتوى ابن الصلاح الشهرزوري وغيرها من الفتاوى في كتاب مصطفى عبد الرازق، (تمهيد لتاريخ الفلسفة) ص٨٤-٨٦... وينقل حاجي خليفة عن بعضهم قوله: إن الفلاسفة الذين خلقوا في هذه الملة الإسلامية وهم أحق أن يسموا سفهاء وجهالاً من أن يسموا حكماء، كشف الظنون، ج٢، ص١٢٨٩.

٣ أكرم زعيتر، المصدر السابق، ص١٢.

السماوية لبدا لنا أن الخلاف الطويل الأمد المثار ضد الفلسفة لم يكن له داعٍ على الإطلاق، فما من حقيقة دينية إلا والعقل يؤيدها وينتصر لها بطريقه. يقول فخر الدين الرازي ((إذا تعارض دليل العقل مع دليل النقل الزم تأويل المنقول على مقتضى المعقول، وذلك أن الدين لم يثبت أصلا إلا بالعقل ودليله))[1]، فلا مندوحة إذن إلا أن نقرأ نص النقل بالعقل، ونحكم دليل العقل بنص النقل... معادلة قد تبدو صعبة لأول وهلة، ولكنها ليس كذلك...

---

١ د. فؤاد زكريا، المرجع السابق، ص٤٣.

obeikandl.com

المبحث الرابع

المنابع الأساسية لعلم التصوف الإسلامي في بغداد السلام/ المبدأ والأصول

الزهد أساس التصوف

التصوف على رأي ابن خلدون ((من العلوم الحادثة في الملة))[1]، وأصله زهد الرسول الكريم واعتكافه بعيداً عن الناس في جبل حراء وغيره[2]، وهو كذلك زهد الصحابة الكرام وعبادة التابعين وتابعي التابعين من السلف الصالح، أولئك النساك العاكفون على العبادة، المنقطعون إلى الله تعالى المعرضون عن زخرف الدنيا وزينتها، الزاهدون فيما يقبل عليه جمهور الناس من لذة ومال وجاه...[3]

فالتصوف إذن في نشأته الإسلامية الأولى، هو: الزهد بعينه والانفراد عن الناس في الخلوة للعبادة، ومجاهدة الشهوة والهوى، والعمل على طهارة النفس وتزكيتها بالإقبال على الله سبحانه من دون غيره، فسموا ((النساك)) و((الزهاد)) و((العباد)). وسموا ((البكاءون)).[4]

---

١ ابن خلدون، أبو يزيد عبد الرحمن بن محمد المغربي، (ت ٨٠٨-١٤٠٥م)، مقدمة ابن خلدون، ص٤٦٧ فما بعد

٢ ابن هشام، أبو محمد عبد الملك الحميري البصري، (ت ٣١٣ أو ٢١٨-٨٢٨م أو ٨٣٣م)، السيرة النبوية، تحقيق محيي الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي، القاهرة، ١٩٣٧م، ص١٠٨.

٣ فصل هذه الصفة، وأكد مضمونها، القشيري أبو القاسم، عبد الكريم بن هوزان (ت ٤٦٥-١٠٦٤م) (الرسالة القشيرية)، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٤٠، ص٣٣-٤٩.

٤ الجاحظ، أبو عثمان، عمر بن بحر، البيان والتبيين: تحقيق وشرح د. عبد السلام محمد هارون، ط٥، ١٤٠٥-١٩٨٥م، ج١، ص٣١٣-٣٦٩.

وعرف آخرون من فقراء المسلمين باسم ((أهل الصفة))...[1]

كان الزهد فاشياً في الرعيل الأول من الصحابة[2] وكانت حياة الخلفاء الراشدين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب (رضي الله عنهم) وسيرة بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي وسلوك أبي بن كعب، وتميم الداري وأبي ذر الغفاري وحذيفة بن اليمان ومصعب بن عمير وغيرهم (رضي الله عنهم)، قد يفوقون العد ولا يبلغهم الحصر، يمكن أن يعدوا بذورا أولى أينعت منها لوحة الحياة الروحية التي زكت وامتدت أغصانها، وأينعت ثمارها، فكانت مقدمات التصوف[3]...

وبعد حين من الزمن، في القرن الثاني للهجرة/ القرن الثامن للميلاد على التحديد، حينما اتسعت رقعة الأرض على المسلمين ((وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً))[4]، وعم الخير، فشا الإقبال على الدنيا، عندها اختص هؤلاء

---

١ وهم جماعة من الفقراء المسلمين الذين هاجروا من مكة أول الدعوة، وكانوا من السابقين الأولين في الإسلام، وقد عرف عنهم الزهد الشديد لفقرهم من ناحية، ولان الإسلام دين المثل العليا والقيم الزهدية الرفيعة شملهم ببركته كان منهم عبد الرحمن الأصم (من أصحاب الظلة يعني الصفة صفة المسجد)، وكان منهم جرهد بن رزاح، وربيعة بن كعب الاسلمي، وأسماء بن حارثة، وطلحة بن عبد الله النضري... ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد (ت ٢٣٠-٨٤٤م)، الطبقات الكبرى، بيروت، دار صادر، بلا تاريخ، ج١، ص٣٠٥، وج٤، ص٢٩٨، ص٣١٣، ص٣٢٢، ج٧، ص٥١.

٢ الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص٣٦٣، ج٣ ص١٩٣.

٣ فصلت كتب التاريخ الرئيسية حياة الخلفاء الراشدين، وحياة الصحابة والتابعين (رضي الله عنهم أجمعين) لعل أهمها: ابن سعد (الطبقات الكبرى)، البلاذري في كتابيه (أنساب الأشراف وفتوح البلدان)، اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير تاريخ الرسل والملوك، المسعودي، في كتابه (مروج الذهب).

٤ سورة النصر، آية ٢.

القوم المنقطعون إلى الله بطريقتهم ولم يجنحوا كما جنح الناس من الإقبال على الدنيا، بل مضوا إلى سبيل ربهم ولم تغرينهم الحياة الدنيا وزينتها بل اعتزلوها بأساليب اختصوا بها، وبممارسات عرفوا فيها، ووسمتهم بين الناس باسم ((الصوفية أو المتصوفة))...

أصل التسمية:

لسنا هنا بصدد اصل التسمية أو لماذا؟ أو كيف؟ فقد أغناها الباحثون تشخيصاً، ولكن المهم أن نقول: إن التصوف الإسلامي هكذا كان، وتلك هي صورته قبل قيام (مدرسة بغداد الفلسفية) أو في بواكيرها وأول نشأتها ((النصف الثاني من القرن الثاني الهجري))، فقد صار الزهد عندها مدرسة، ونظم فيها نفسه، ولملم أوراقه، ونسق أفكاره، صار علماً له منهجه الروحي وسلوكه ومجاهداته الصوفية، ومر بتجارب وتراكم خبر عبر السنين، ثم أضحى أساساً من الأسس الفكرية، وركيزة من ركائز التراث العربي الإسلامي، امتلك رؤية متميزة حول الإنسان والوجود وبات نقلة معرفية للإنسان المسلم خلق لغته الخاصة ورموزه المتعارفة التي تميزت بالرمزية الشديدة، أعطت المفردات معاني ودلالات توليدية بقرائن بعيدة عن أصولها القاموسية، ضمن اتجاه الصوفية لاختراق المسلمات في العقائد والأفكار واللغة، ولم تكن فعاليات التصوف هذه في (مدرسة بغداد الفلسفية) بمنزلة ((ردة فعل للمدارس الفكرية المختلفة في الكلام والفلسفة والفقه))[1]، هكذا وبصورة مطلقة من دون تحديد للمفاهيم وتعريف مطلق للمعاني، بل التصوف في كل هذه العلوم والمفاهيم والأنشطة لا يخرج عنها إلا بمقدار ما يعود إليها منتمياً ليصطف معها أساساً من أسس الفكر في بغداد، ينبع من بيئتها، ويوائم حركة الحياة فيها، نعم كان علم الكلام يهدف إلى تقريب العقائد الدينية من العقل، ويلتمس إليها أدلة عقلية، في حين كان هدف المتصوفة أن

---

١ الشيبي، د. كامل مصطفى، صفحات مكثفة من تاريخ التصوف، ص٢٥.

يكون الطريق سالكاً عن طريق التذوق والوجد، والدخول إلى تلك العقائد عن طريق القلب، وما كان في حسابهم البحث فيها على مناهج العقل أو إقامة البراهين عليها، فكانوا يسعون إلى تذوقها على وفق نظام مجاهدة النفس... ولذا لم يأتِ الفكر الصوفي بمنزلة ردة فعل للمدارس الفكرية المختلفة بل هو ردة فعل لبعض الأفكار التي كان نظامها ((جاد التفكير ضعيف الروح))[1]، غالى في تقدير العقل وقصر في قيمة العاطفة التي ينشدها الصوفي في ممارساته، فالصوفية في (مدرسة بغداد الفلسفية) خاصة على خلاف المعتزلة من المتكلمين الذين أعطوا حجماً كبيراً للعقل على حساب جوانب كثيرة أخرى في النفس البشرية، الأمر الذي الجأ المتصوفة إلى التمسك بالشعور الوجداني والعاطفة التي لا يقيدها منطق، على وفق نظام تعارفوا عليه، ينشأ للمريد الصوفي جراه مقاماً وصفة حاصلة للنفس يتدرج المريد بعدها من مقام إلى مقام إلى أن ينتهي إلى النتيجة التي يرضى عنها بالذوق فيصل ((إلى حمل النفس على المشاق البدنية، ومخالفة الهوى على كل حال..)) كما يقول ابن عربي[2]، ((وهنا تستحيل الحياة الزهدية من مجرد رياضة للنفس ومجاهدة لدواعي الحس إلى نظام روحي أو فلسفة قوامها مذهب روحي))[3] ولهذا فإن شيوخ الطريقة يوصون من يريد أن يسلك هذا الطريق آن يجتهد بالوصول إليه بالعيان من دون أن يطلبه بالبيان فإنه (التصوف) طور وراء طور العقل، وقالوا بهذا المعنى شعرا:

علم التصوف علم ليس يعرفه إلا أخو فطنة بالحق معروف

---

١ أحمد أمين، روح الإسلام، ج٣، ص٧٣.

٢ ابن عربي: أبو عبد الله محيي الدين محمد بن علي (ت ٦٣٨-١٢٤٠م)، رسائل ابن عربي، نشر جمعية دائرة المعارف التركية، حيدر أباد، ج٢، ص١٢.

٣ د. محمد مصطفى حلمي، الحياة الروحية للإسلام، مصر ١٩٤٥، ص٨٠.

وليس يعرفه من ليس يشهده وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف[1]

إذن التصوف الإسلامي بعامة وفي (مدرسة بغداد الفلسفية) بخاصة، علم وذوق، وإنه لا يناقض العقل مطلقاً، لأن وراء العقل طوراً يكمله ولا يناقضه، وهو ممارسة عملية ترتكز على حركات وأفعال لا يكون التصوف إلا بها وهي رياضة النفس ومجاهدتها، وهو أيضاً الذوق والوجد، وانكشاف الحقائق وانحسار الحجب، ومعرفة الدقائق وصفاء الروح ونقاء السريرة ((وأنهم (الصوفية) أرباب أحوال لا أصحاب أقوال)) كما تيقن الغزالي من ذلك[2].

والممارسة العملية لأرباب الأحوال أولئك عملية مؤطرة بمنهج علمي غير بعيد عن منابع الفكر في بغداد، بل علم التصوف هو رابع الأثافي لمنابع الفكر البغدادي، كما سبق القول، ونعني بهذه الأثافي: علم الكلام، وعلم أصول الفقه، والفلسفة العربية الإسلامية ورابعها علم التصوف... فقد كان التصوف ((معاصراً لبوا كير الإنتاج الفلسفي الإسلامي، ويمكن استخلاص وجوه من الشبه بين الفلسفة والتصوف في عبارات الفلاسفة والصوفية بحيث يمكن اعتبار التصوف صورة جديدة من الفلسفة طورها أصحابها استقلالا بها عن صور الإنتاج الفلسفي))[3].

والتصوف أيضاً توأم علم أصول الفقه بعد أن ولدا من رحم واحد هو رحم ((علم الكلام))... وعلاقة التصوف في بغداد بالفقه نفسه، علاقة تلازم وحوار أفكار لا صراع همجي، فإنهم يقولون للتصوف (علم الحقيقة... وعلم الشريعة بلا علم الحقيقة عاطل وعلم الحقيقة بلا علم الشريعة باطل))[4]،.... اختلف الفقهاء

---

١ حاجي خليفة، كشف الظنون. . . ، ج١، ص٢٦٦

٢ الآلوسي، د. حسام، دراسات في الفكر الفلسفي الإسلامي، ص٢٧٥-٢٧٨.

٣ الشيبي، المرجع السابق، ص١٠٠.

٤ حاجي خليفة، المصدر السابق، ج١، ص٢٦٥.

في التصوف اختلافاً عظيما وافترقوا فيه فرقا ((فمنهم من افرط في مدحه، ومنهم من افرط في ذمه وأفتى بكفره، ومنهم من كف عنه وسكت))[1]، وكان هذا الفريق الساكت هو الفريق الأكثر عدداً والأعم الأغلب من الفقهاء... وتلك هي الأفكار حوار دائم لا صراع قاتل... ومن المناسب أن نذكر هنا إن هذا الجدل والحوار في الأفكار وهذا التعارض بين المتصوفة والمعتزلة على الخصوص، ما كان مقصوراً عليهما فقط، بل إن هذا التعارض والحوار كان شاملاً فيما بين أهل العاطفة والوجد والحدس وفيما بين أهل العقل والبرهان والتجارب بل يتعدى ذلك إلى أصحاب الفن والأدب واللغة، بل وعامة الناس في حياتهم اليومية ومفرداتهم الذاتية، ويظهر كذلك على مستوى الفكر بكل اختصاصاته الفلسفية والكلامية والأصولية وما شابهه ((فقد يوغل الناس ذات عصر في تحكيم العقل حتى ليذهبوا إلى حد عبادته وإنكار كل ماعداه)) فعندئذ يظهر من يريد تحجيم هذا الإيغال ويدعو إلى أولوية العاطفة كردة فعل،.... وهو ما حدث حين ((ظهر جان جاك روسو أبان القرن الثامن عشر ليقاوم عباد العقل من أعلام حركة التنوير في فرنسا، أو كما حدث أيضاً حينما ظهر برجسون في عصرنا الحديث هذا داعيا إلى أولوية الوجدان ليصد موجة عارمة طغت على أوربا خلال القرن الماضي لتحمل الناس على الإيمان بالعلم وحده وبالعقل وحده... وعكس هذا الأمر صحيح كذلك، فقد يوغل الناس في التنكر للعقل حتى تراهم لا يحتكمون إلا لما جاء من غير مصدره من عاطفة وعرف وتقليد))[2].

وبعد، قد لا نغالي إن قلنا: إن التصوف بصيغته المنظمة وبشقيه التدريب العملي والتنظير الفكري كان قد بزغ فجره في (مدرسة بغداد الفلسفية) أوائل بزوغ فجر مدينة بغداد، وذلك في العقود الأخيرة من القرن الثاني للهجرة،

---

١ المصدر السابق، ج١، ص٢٦٦

٢ د. زكي نجيب محمود، نافذة على فلسفة العصر، الكويت، ١٩٧٧، ص١٤٤-١٤٥.

مؤكدين هنا إن لفظ (التصوف) نشر في بغداد قبل القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي[1]، جاء به الزهاد من أهل علم الكلام البغدادي، وهو مصداق قولنا إن التصوف بشقه النظري ولد من رحم ((علم الكلام)) في بغداد، ودليلنا على ذلك أن منظري التصوف المؤسسين كانوا في مدينة بغداد منهم الشيخ معروف الكرخي الذي كان زاهداً عابداً صادراً عن علم الكلام[2]... وكانت الشخصية التالية في التأسيس الصوفي البغدادي الحارث بن أسد المحاسبي، كان متكلما متقدما وزاهدا من المتكلمين[3]، له كتب كثيرة في الزهد وأصول الديانة والرد على المعتزلة[4]،... وكان من المؤسسين أيضاً عبد بن يحيى، وهو من طبقة الحارث المحاسبي، كان متكلماً مقدماً وزاهداً عابداً وله في الكلام والزهد كتب[5]... ومن الصوفية الصادرين عن ((علم الكلام)) البغدادي، رموز لها شانها في التراث العربي الإسلامي احتضنتهم بغداد وعطرتهم بعطرها، ذكر أبو عثمان الجاحظ أسماء إضمامة من الزهاد والصوفية ممن ((كان يجيد علم الكلام وهم كلاب وكليب وهاشم الأوقص وأبو هاشم الصوفي وصالح بن عبد الجليل))[6]، كما جاء في ((فهرست ابن النديم ذكر عدد من أسماء العباد الزهاد الصوفية المتكلمين الصادرين عن هذا العلم (علم الكلام)، منها ما نقله عن محمد بن اسحق الذي كان قد نقل ذلك عن خط أبي محمد جعفر الخلدي عن خط شيخه أبي قاسم الجنيد بن

---

١ أشار إلى مثل هذا، هنري كوربان، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ص٢٨٥.

٢ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص٢٣١-٢٣٣. ومصدر ترجمة الكرخي في هامش ٧٢٩ من الكتاب.

٣ المصدر السابق، ج٢، ص٥٧-٥٨.

٤ ابن النديم، الفهرست، المقالة الخامسة، الفن الخامس، ص٢٣٥-٢٣٦

٥ المصدر السابق، ص٢٣٦.

٦ البيان والتبيين، ج١، ص٣٦٦.

محمد رئيس المتصوفة ببغداد ومقعد قواعد مدرستها ((وهو متكلم زاهد))[1]... ومن المتكلمين الزهاد أيضاً الأصم كان فقيرا شديد الصبر على فقره له كتب كثيرة في علم الكلام والزهد توفي (٢٠٠هـ/ ٨١٥م)... ومنهم أيضا أبو موسى عيسى بن الهيثم الصوفي توفي سنة (٢٤٥هـ / ٨٥٩م)[2]، وكلاب بن جرى الذي ذكره الجاحظ، كان من الصوفية الزهاد أيضاً أشار إليه ابن الجوزي في كتابه ((صفة الصفوة))[3]، وكان عثمان بن شريك الكوفي أبو هاشم الصوفي، أول من لقب بهذا اللقب وعرف عنه التصوف كان من قدماء صوفية بغداد وزهادها، جلس إليه الفقيه الكبير سفيان الثوري، ثم انتقل من الكوفة وسكن بغداد في السنين الأولى لنشأتها وتوفي سنة (١٥٠هـ/ ٧٦٧م)[4].

وكان ((سفيان الثوري صوفياً عابداً ورعاً ناسكاً فقيهاً راويةً للحديث ثقةً أميناً)) توفي عام (١٦١هـ/ ٧٧٧م)، دعاه الخليفة المنصور وابنه المهدي إلى جوارهما ببغداد، فلم يحل له فيها المقام، فاختفى حتى مات[5]... وكان أبو محمد سفيان بن عيينة بن عمران زاهداً متكلماً توفي عام (١٩٨هـ/ ٨١٣م) وشعيب بن حرب، كان أحد المعدودين بالتصوف والعبادة والصلاح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... قال أشعب بن حرب مرة: أكلت من عشرة أيام أكلة وشربت شربة، كان سري السقطي كثيراً ما يذكره في مجلسه[6]...

---

١ ابن النديم، الفهرست، ص٢٣٥.

٢ الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص٣٦٦.

٣ ج٢، ص١٧٢.

٤ الطبري، التاريخ، ج١٥، ص٢٥٢١. حوادث عام ١٦١هـ، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٣٨٦-٣٩١.

٥ الطبري، المصدر السابق، ج١٥، ص٢٥٢١.

٦ المصدر السابق، ج١٥، ص٢٥٢١. حوادث عام ١٩٨هـ.: ابن خلكان، ج٢، ص٣٩١.

وتأسيساً على ذلك ليس صحيحاً قول عين القضاة الهمداني[1] (ت ٥٢٥هـ/ ١١٣١م) الذي أشار إليه المستشرق الفرنسي هنري كوربان: ((فأما من حج على طريق الله في الحقب السالفة ومن الأجيال الأولى فلم يعرفوا باسم المتصوفين: فالتصوف كلمة لم تنشر إلا في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، وكان أول من عرف بهذا الاسم في بغداد رجل اسمه (عبدك الصوفي) توفي سنة (٢١٠هـ/ ٨٢٥م)، والصحيح كان المتصوف البغدادي أبو هاشم الصوفي، عثمان بن شريك المتوفى عام (١٥٠هـ/ ٧٦٧م) كما أسلفنا هو الأقدم وعليه (ظهر التصوف عمليا ونال استقلاله عن الزهد في أواخر القرن الثاني الهجري/ في العقود الأخيرة من القرن الثامن الميلادي))[2] وليس بعد ذلك...

الشيخ معروف الكرخي: (ت ٢٠٠هـ/٨١٥م)

ومن المؤكد أن الشيخ معروفاً الكرخي المتوفى عام (٢٠٠هـ/ ٨١٥م) كان أول زاهد استحق اسم الصوفي بمعناه الشامل الكامل، وذلك لا عن لقب ونسب، وإنما عن فكر ونهج وراي، وعند هذا الرجل وفي بغداد في بواكيرها ((استقر التصوف نهائيا))[3] وصارت له قواعده وممارساته العملية وفكره ونظره، فقد كان التصوف عند معروف الكرخي كما حده بالقول: ((التصوف: هو الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق)) كان الناس في بغداد يعظمون معروفاً الكرخي. فقد كان مشهوراً بإجابة الدعوة، وأهل بغداد يستسقون بقبره ويقولون:

---

1 تاريخ الفلسفة في الإسلام، ص٢٢٠.

2 الشيبي، صفحات مكثفة، ص١٠٦.

3 الشيبي/ المرجع السابق، ص١٠٧، ترجمات مفصلة للكرخي في طبقات السلمي، ص٨٣، طبقات الحنابلة، ص٣٨١، وابن الجوزي، صفوة الصفوة، ج٢، ص١٧٩، الخطيب البغدادي، تأريخ بغداد، ج١٣، ص١٩٩، وغير ذلك كثير.

((قبر معروف ترياق مجرب))[1] وقال تلميذه الصوفي الكبير سري السقطي عن شيخه معروف ((رأيت معروفاً الكرخي في المنام، وكأنه تحت العرش، والباري جلت قدرته يقول لملائكته: هذا معروف الكرخي سكر من حبي فلا يفيق إلا بلقائي))[2]، وروايات السقطي عن شيخه كثيرة قد تبلغ أحيانا حد المبالغة.

وقيل لمعروف الكرخي في المرض الذي مات فيه: أوْصِ، فقال: ((إذا مت فتصدقوا بقميصي فإني أريد أن أخرج عرياناً كما دخلتها عرياناً))[3]

وكان الكرخي بسلوكه ذاك وممارساته ومجاهداته ((يمثل مدرسة صوفية تتخذ فكرة البسط والإيجابية في مقابل القبض والسلبية التي كان يتبعها معاصره بشر الحافي)).[4]

فكان معروف يحقق إنسانيته بالإيثار أو بالمساعدة على صورة إيجابية، في حين كان بشر يحاول ما أمكنه أن يجتنب الاختلاط وأن يصيب غرضه من تصوفه بالنفور من الناس والتشاؤم الذي يحسه في داخله منهم ويمنعه من ممارسة حياة طبيعية فيهم، فكان معروف يقول في هذا الصدد ((إنّ أخي بشراً قبضه الورع وأنا نشطتني المعرفة))[5].

ويؤكد ابن النديم في الفهرست أن سلسلة السند المعتمدة للتصوف تمر في الجنيد عبر خاله السري السقطي عن معروف الكرخي عن فرقد السبخي عن

---

1 ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٥، ص٢٣٢.

2 المصدر السابق، ج٥، ص٢٣٣.

3 المصدر السابق، ج٢، ص٣٥٧.

4 ابن خلكان، المصدر السابق، ج٥، ص٢٣٢.

٥ الشيبي، المرجع السابق، ص١١٢.

الحسن البصري عن أنس بن مالك وكان الحسن البصري قد لقي سبعيناً من البدريين[1]...

أبو نصر بشر الحافي: (ت ٢٢٧هـ / ٨٤١م)

أحد رجال الطريقة المؤسسين للتصوف البغدادي معاصر للشيخ معروف الكرخي كان من كبار الصالحين، وأعيان الأتقياء المتورعين، سكن بغداد مدة طويلة ومات بها (عام ٢٢٧هـ /٨٤١م) كان قبل توبته من أولاد الرؤساء والكتاب. وكانت له ثلاث أخوات زاهدات عابدات ورعات، تروى عنهن قصص في العفة والورع،... وقال بشر الحافي: تعلمت الزهد من أختي فإنها كانت تجتهد ألا تأكل ما لمخلوق فيه صنع...) وكان يقول: ((من طلب الدنيا فليتهيأ للذل)) وقال أيضاً ((عقوبة العالم في الدنيا أن يعمي بصر قلبه))[2] والتصوف عند بشر الحافي: هو ((من صفا قلبه لله))[3]، كانت علاقة بشر بمجتمعه علاقة تنافر وابتعاد، فقد كان يبتعد عن الناس ما استطاع، والنفور من الأصدقاء والمعارف ما أمكنه ذلك، والإساءة إلى نفسه في هذا الأمر كان من طباعه، يروى عنه بهذا الشأن أنه لقي في يوم عيد الأضحى صديقه القديم خالد بن خدس فقصر في السلام عليه فقال خالد: ((بيني وبينك مودة أكثر من ستين سنة فما تغيرت عليك فما هذا التغيير؟ قال بشر: ما هاهنا تغيير ولا تقصير ولكن روي بالحديث أن

---

١ المقال الخامس، الفن الخامس. ص٢٣٥.

٢ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص٢٧٤-٢٧٥. الهامش رقم ١١٤ في ص٢٧٤، الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج٧، ص٦٧.

٣ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص٢٧٥.

المسلمين إذا التقيا كان أكثرهما ثوابا أبشهما بصاحبه، فتركتك لتكون أفضل ثوابا مني))[1]

الحارث بن أسد المحاسبي: (ت ٢٤٣هـ/ ٨٥٧م)

أبو عبد الله البغدادي الزاهد العابد، أحد رجال الحقيقة وشيوخ الطريقة من رواد الطبقة التالية المؤسسين للتصوف البغدادي بعد معروف الكرخي، هو ممن اجتمع له علم الظاهر ((علم الحديث وعلم الفقه وعلم الكلام)). وعلم الباطن ((علم المجاهدة والوجد وتزكية النفس بالعلم والعمل))، كان المحاسبي فقيهاً متكلماً صوفياً عرف مذاهب النساك عن علم وتجربة ((ويحكى عنه أنه كان إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة تحرك على إصبعه عِرق فكان يمنع منه))[2]، كتابه ((الرعاية لحقوق الله)) كان كتابا رائدا في دراسة النفس البشرية وسبر أغوارها يعدّ إرهاصاً ومقدمة مبكرة لعلم النفس، فقد أشار المحاسبي فيه إلى أدق مسائل النفس وابعد تفاصيلها، جعله منهجاً للإنسان في انتشال تلك النفس من رعونتها وتفاهتها، والارتقاء بها إلى المستوى الذي فيه سعادتها في الدنيا والآخرة، وكتاب المحاسبي ((التوهم)) من أجمل ما كتب عن الإنسان في رحلته في هذه الدنيا، وكتابه ((الرد على المعتزلة)) في مسألة خلق القرآن والتشبيه يعدُ مشاركة للمحاسبي في مسائل عصره ويعالج المشكلات المطروحة في زمانه، والمحاسبي وان كان على خلاف مع المعتزلة، إلا أنه ما كان إلى جانب أهل الحديث والفقهاء، ((فكان أحمد بن حنبل (رضي الله عنه) يكرهه لنظره في علم الكلام وتصنيفه فيه، وهجره فاستخفى من العامة، فلما مات لم يصلّ عليه إلا أربعة نفر))[3] مع إن المحاسبي

---

١ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج٧، ص٦٦.

٢ ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج٢، ص١٨٣، ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٥٨.

٣ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج١، ص٥٨.

كان إيجابياً في تصوفه قريباً من الناس في تعامله لا ينفر ولا يتقوقع وهي الطريقة ذاتها التي سلكها شيخه معروف الكرخي، وهي الطريقة عينها التي كان عليها الشاعر أبو العتاهية في لبسه الصوف وهو في بلاط الخلفاء ينادم الخلفاء ويقرأ الشعر في مجالسهم[1].

المتصوفون عامة والمحاسبي من المؤسسين منهم لا يرى لنفسه حظا، فهي (النفس) بالأصل أمارة بالسوء فلا يطمئن الصوفي إلى نفسه في عقيدة ولا يركن إليها بعمل، لأنها عنده شر محض، ولا يصدر عنها إلا ما وافق طبعها من رياء ورعونة، ولذلك يقف الصوفي من النفس موقف الاتهام والمخالفة، فلا يقصر في محاسبتها وسوء الظن بها، وتنفيذاً لهذا كله واعتقاداً لقب الحارث بن أسد نفسه بالمحاسبي وهي إشارة إلى معتقده في محاسبة النفس ((لأنه كان يحاسب نفسه))[2]، وليس كما كان ينتسب الناس إلى مدينة أو حرفة أو عشيرة، ولكن البعض من أساتذتنا ممن بهرهم الغرب، يفرغون كل فكر من الشرق وينسبونه إلى الغرب، ويرددون قول البعض من المستشرقين أفكاراً لا تليق بتراثنا، فهم يقولون: التأمل العقلاني في (مدرسة بغداد الفلسفية) نقل وترديد للفكر الإغريقي وعلى هذا الأساس وجد المحاسبي إن شعار ((اعرف نفسك)) السقراطي هو ضالته، فتقمصه وطمح إليه كما يطمح الفيثاغوريون والأفلاطونيون والرواقيون وأصحاب الأفلاطونية الحديثة من فلاسفة اليونان، وبذلك تحقق اللقاء بين الفلسفة اليونانية في جانبها المثالي وبين التصوف الإسلامي، وليس هذا فقط بل أنهم يقولون: حاول المحاسبي النقل من تجارب السابقين عليه ((فكان النصارى الذين يعد رهبانهم نماذج للصوفية الكاملي الأداء، وقد تأثر المحاسبي بالكتب الدينية

---

١ المسعودي، مروج الذهب، ج٤، ص٧٢

٢ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٥٨.

المسيحية وبسيرة السيد المسيح))[1]. ويبدو إن هذا الأمر وفي هذه المسألة قد حمل أكثر من طاقته، لأن المحاسبي واحد من متصوفة بغداد الذين أسهموا في تقعيد علم التصوف بعد شيخه معروف الكرخي... الصوفية أنفسهم ينكرون هذه الطروحات، ولا يجدون أنهم قد استمدوا طريقتهم من غير الكتاب الكريم والسنة النبوية، وينفرون من أن يتهموا بأنهم يسيرون على آثار غير المسلمين من الناس أو على آثار الفلسفة أنى كان مصدرها انهم مسلمون استلهموا القرآن منهجا والسنة النبوية طريقاً، ((ولو لم يكن للنصارى رهبانية وللبوذية رياضة وللإغريق فلسفة لنشأ التصوف في الإسلام وتطور مع الرجال والعصور والأحوال، ولكنه حين وجد هذه الفرق استعان بما يلائم مقاصده منها))[2]، وما ذلك إلا سعة في التفكير وانفتاح على علوم العصر وتحاورُ مع الحضارات لا عيالاً عليها، لأن التصوف في الأصل استجابة لنزوع النفس الإنسانية إلى معرفة مبدئها ومنتهاها وتطلعها المستمر إلى الاتصال بخالقها، ولا يختص ذلك بذات النفس الهندية أو الصينية أو الإغريقية أو غيرها، والمحاسبي عبقري من عباقرة بغداد تعطر بعطرها المغموس بنفحات الشرق فجهد نفسه في الطريق الذي اختاره.

حاتم بن عنوان بن يوسف الأصم: (ت٢٣٧هـ / ٨٥١م)

أبو عبد الرحمن زاهد عابد متصوف، اشتهر بالورع والتقشف، من المؤسسين للتصوف البغدادي، وله مصنفات بذلك ((وله كلام يُدون في الزهد والحكم))[3]، قدم بغداد أيام الخليفة المأمون، وشهد مسألة خلق القرآن، كان من

---

١ تفصيلاً لمثل هذا الطرح، الشيبي، صفحات مكثفة، ص١١٦-١١٧.

٢ عبد الوهاب عزام، التصوف وفريد الدين العطار، (مصر ١٩٤٥)، ص١٦٧.

٣ ابن خلكان، المصدر السابق، ج٢، ص٢٦.

أصدقاء الإمام أحمد بن حنبل، فاجتمع إليه أهل بغداد[1] على خلاف معاصره الحارث بن أسد المحاسبي الذي اختلف مع ابن حنبل فاختفى هرباً من أهل بغداد... ولأن الطريق إلى الله عند الصوفية ((كعدد أنفس بني آدم))، فلم يتفق الصوفية على طريق بعينه يمارسون في ضوئه أعمالهم في المجاهدة والوجد، بل لكل منهم سلوكه وطريقه في ممارسة الزهد في الدنيا والتقشف في العيش، كان الأصم إيجابياً في ممارسة طقوسه الصوفية، بسيطا مع الناس، بعيداً عن التشاؤم قريباً من القلوب، ((سأله أبو عبد الله أحمد بن حنبل: فيم أتخلص من الناس؟ قال الأصم: أن تعطيهم مالك ولا تأخذ من مالهم شيئاً، وتقضي حقوقهم ولا تستقضي منهم حقاً، وتحمل مكروههم ولا تكره واحداً منهم على شيء))[2]، وسأل أهل بغداد يوماً حاتم الأصم، ((لأي معنى لا يكلمك أحد إلا قطعته؟ فقال حاتم: معي ثلاث خصال بها أظهر على خصمي، قالوا: أي شيء هي؟ قال: أفرح إذا أصاب خصمي، وأحزن له إذا أخطأ، وأخفض نفسي لا تتجاهل عليه، فبلغ ذلك أحمد بن حنبل فقال: سبحان الله ما أعقله من رجل))[3]... تلك هي فتوة الصوفي وآثاره وابتعاده عن الجاه والمال واللذة ومحاسبة النفس وقهرها...

سري السقطي: (ت٢٥٤هـ / ٨٦٨م)

أبو الحسن سري بن المغلس السقطي، أحد رجال الطريقة وأرباب الحقيقة ومن أبرز رؤوس الصوفية الأوائل، كان أوحد زمانه في الورع وعلوم التوحيد، وهو خال أبي القاسم الجنيد وأستاذه، وكان السقطي من تلاميذ معروف الكرخي المقربين وممن تأخر عنه فقد عاش السقطي حتى عام (٢٥١هـ/ ٨٦٥م) اختار

---

١ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج٨، ص٢٤١.

٢ ابن خلكان، المصدر السابق، ج٢، ص٧٨.

٣ ابن خلكان، المصدر السابق، ج٢، ٧٩.

التصوف عن إدراك ودراية، لأنه وجد أن الصوفي ((اسم لثلاثة معان: هو الذي لا يطفئ نور معرفته نور ورعه، ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب، ولا تحمله الكرامات على هتك محارم الله))[1]، وهذا التوازن في المواقف أضحى فيما بعد قواعد لمدرسة بغداد الصوفية لئلا يظهر التصوف بمظهر شاذ عن روح الإسلام أو مناهض للعبادات والمناسك، بل طروحات السري السقطي كانت تصر على ربط التصوف بالكتاب والسنة والتفقه في ضوئهما، فكان هو ومريدوه لا يغفلون قط عن الواجبات الدينية.

ومما يتميز به التصوف عند ((سري)) هي تلك النزعة للحب الإلهي المطلق، وتعني أن المريد يذوب في الحب حتى تيبس جلدته على عظمه من المحبة، وكثيراً ما كان السري ينشد أشعاراً في هذا المعنى وفي مثل هذا الصدد. ويحكى عن سري السقطي قوله: أنه منذ ثلاثين سنة في الاستغفار لسبب بسيط يحدث لكثيرين في الحياة، لأنه قال لمن اخبره بالحريق الذي وقع في بغداد ونجا فيه دكانه من الحريق. عندها قال السري (الحمد لله) فندم على ذلك فهو يقول: ((أنا نادم من ذلك الوقت على ما قلته حيث أردت لنفسي خيراً من دون الناس))[2]، تلك هي غاية في الإيثار وخلاصة في نكران الذات لا ينهض إلا في أحضان أولئك المنقطعين إلى الله... ومن المعروف إن سري السقطي كان تاجراً في سوق بغداد فجاءه معروف الكرخي ومعه صبي يتيم فقال له معروف: أكسُ هذا اليتيم، قال السري: فكسوته، ففرح به معروف أيما فرح فقال الكرخي: يدعو الله لي ((بغض الله إليك الدنيا وأراحك مما أنت فيه)) فقلت يقول السري: فقمت من

---

١ الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج٦، ص١٨٧، ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج٢، ص٢٠٩، وحلية الأولياء، ج١، ص١١٦.

٢ ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج٢، ص٣٥٧.

ساعتها وليس لي ابغض من الدنيا وكل ما أنا فيه من بركات معروف الكرخي[1]، هكذا هم نواة وبواكير علم التصوف في مدرسة بغداد الصوفية. فقد نبعَ من تربة أولئك الأفذاذ صوفيون ذاع صيتهم من ذلك اليوم وما زالوا يعيشون معنا الحياة وكأننا في حلقة من حلقات دروسهم. غفر الله لهم وأدخلهم فسيح جناته.

وخلاصة القول: الشيخ معروف الكرخي العابد الزاهد من ((أهل التصوف الذين خصهم الله تعالى من عامة المؤمنين بالحقائق والأحوال والمقامات، وخصوص أهل التفريد، وتجريد التوحيد ومن عبر الأحوال والمقامات وسلكها، وقطع مفارزها))، استحق المرجعية، واسم (الصوفية) بمعناه الشامل الكامل، لا عن لقب ونسب، وإنما عن فكر ومنهج ورأي وسبب...

كان من المشايخ الكبار الذين أسسوا التصوف في فجر بغداد، يستسقي بقبره، يقول البغداديون: قبر معروف الكرخي ترياق مجرب منذ ١٢٢١ عاماً وحتى اليوم، ومصداق قولنا هذا المقام الشامخ والعمارة الفريدة الطراز، والفن المعماري المتميز، دفن عنده الخلفاء، وطلب شفاعته الوزراء وكبار القوم...

لاذ بحماه المستضعف، وأمن بقربه الخائف، وشبع ببركته الجائع.

هو هكذا قبره منذ اكثر من اثني عشر قرنا، ما انقطع عنه الزائرون، وما نسيه الحكام والمسؤولون، وما سكتت منه الألسن وما ابتعدت عنه الأفئدة...

هو من عائلة مسلمة صحيحة النسب، متينة الإيمان، وهو سند الصوفية وحبيب أهل الحقيقة ولا عبرة في روايات مصنوعة سابقة.

كراماته أكثر من أن تحصى، وبركاته أوسع من أن تذكر.

---

١ ابن خلكان، المصدر السابق، ج٢، ص٣٥٧-٣٥٨.

التصوف في منهج الشيخ معروف الكرخي لم يأت كردة فعل للمدارس الفكرية المختلفة، بل هو ردة فعل لبعض الأفكار التي كان نظامها ((جاد التفكير ضعيف الروح))، غالى في تقدير العقل، وقصر في قيمة العاطفة...

كان التصوف في زمن الشيخ معروف الكرخي نقيا طريا. لم تمسه الأفكار الوافدة بسوء، ولم يعتمد الإغريق منهجا ولا الهنود ملجأ، ولد من ((رحم الكلام)) طريقه الوحي، ومسلكه زهد العباد.

ولو لم يكن للنصارى رهبانية، وللبوذية رياضة، وللإغريق فلسفة، لنشأ التصوف في الإسلام.... نعم التصوف تحاور مع الحضارات لا عيالا عليها.

منهج الشيخ معروف الكرخي وطريقته في التصوف هو النهج الحق، صاحبه من يحفظ القران، ويعتمد السنة المطهرة، وينفذ الشرع الشريف، ولا عبرة بالمسابح الطويلة، والأواني العتيقة، ولا يقر شطح السفهاء، وغناء الشحاذين، وبؤس الدراويش، لأنهم ليس من التصوف بشيء.

التصوف حسن الخلق، فمن زاد عليك بالخلق، زاد عليك بالتصوف، المتصوف كالأرض يطرح عليها كل قبيح، ولا يخرج منها إلا كل مليح، المتصوف رجل كريم مع قوم كرام.